18

18 قصـــة غريبـــة تحبـــس الأنفـــاس..
كـل الأنفـاس

عبدالوهاب السيد الرفاعي







العنوان

18

تأليف

عبدالوهاب السيد الرفاعي

الطبعة

الأولى 2024

ردمك:

978-9921-737-90-5

رقم الإيداع: 2023/2090

تصميم وإخراج

فانتازيا للنشر والتوزيع







18 قصة غريبة تحبس الأنفاس.. كل الأنفاس

عبدالوهاب السيد الرفاعي



تنويـه

يسألني القراء باستمرار ودون توقف عن مدى واقعية القصص التي أكتبها.. ولهؤلاء الأعزاء أقول:

أعتذر بشدة عن الإجابة لأسباب لا مجال لذكرها.

لا وجود للأشباح

نعم.. لا وجود للأشباح.. أقولها وأرددها دوما بثقة.. رغم الحديث المستمر عنها في مختلف الحضارات والثقافات القديمة والحالية.. وهذا أيضا ما أردده لطلبتي في الجامعة.. فأنا رجل عِلم.. حاصل على درجة الدكتوراه في الفيزياء.. وأتعامل مع الأمور بالمنطق العلمي الصارم.. وكانت هذه نقطة خلاف لا تتوقف بيني وبين طلابي في نقاشاتنا الجانبية.. حيث يحاول بعضهم إدخال الأمور الدينية في نقاشاتنا.. لأخبرهم بحزم أن الإيمانيات لا تخضع للمنطق العلمي.. فهي غيبيات عليك أن تختار الإيمان أو عدم الإيمان بها.. بينما العلم يفرض نفسه بالأدوات التي يستخدمها العلماء للوصول إلى حقيقة ما.. هكذا بكل بساطة.. ولا يوجد دليل علمي واحد حتى الآن على وجود الأشباح.

جميعهم يعرفون رأيي في هذا الأمر.. خاصة الطلبة المولعين بالماورائيات.. والذين يصدّقون تلك الكتب التجارية الرخيصة التي تؤكد وجود الأشباح والمخلوقات الفضائية بشهادات من أشخاص لا نعرف شيئا عن مصداقيتهم.. أو حتى قوتهم العقلية.. وهذا ما أصاب طلبتي هؤلاء بشيء من اليأس.. وهذا لا يعنيني.. فأنا لست والدتهم كي أمنحهم الأمل وأشعرهم أن هناك عوالم ماورائية ربما تكون أجمل من عالمنا هذا.. أنا أريدهم -ببساطة- أن يهيئوا أنفسهم للعالم الحقيقي في مرحلة ما بعد التخرج وخوض غمار العمل.

لذا.. لم أكن متحمسا حين وجدت أحد تلامذتي ذات يوم عند باب مكتبي وهو يستأذنني للدخول بكلمات سريعة.. فسمحت له بذلك.. ليجلس على الكرسي ويتحدث بلهفة شديدة عن تحدّ حقيقي وحالة فريدة قد تثبت لي وللعالم وجود الأشباح.. فهناك -والحديث ما زال على لسان تلميذي- شقة مسكونة في عمارة سكنية قريبة من الجامعة.. كان يقطنها منذ عدة سنوات شخص غريب الأطوار انتحر بسبب اضطراباته النفسية

الشديدة.. وأن كل من سكن هذه الشقة فيما بعد ادعى أنه رأى فيها أشياء غير عادية.. أضواء غريبة تظهر هنا وهناك.. طيف بشري يظهر فجأة ويختفي.. والآن تلميذي هذا يسكن تلك الشقة كما يدّعي.

إلا أن الأمر صعب الإثبات -باعتراف تلميذي أيضا- كما يحدث دوما مع قصص الأشباح.. فحين تريد أن تراها وتتأكد من وجودها بصورة قاطعة أو حتى تلتقط لها صورة واضحة.. تختفي فجأة.. حتى لتتساءل إن كان ما رأيته حقيقة أم أن نظرك يخدعك.

وقد أكد لي تلميذي أنه سيلغي عقد الإيجار قريبا ويسترد أمواله من مالك العمارة.. لأنه لم يعد يحتمل ما يراه في تلك الشقة المشؤومة.. بل وادّعى أن 3 من أصدقائه قاموا بقضاء ليلة واحدة معه في شقته هذه.. فسمعوا ورأوا جميعا أشياء مخيفة.. لكن كان يستحيل تصويرها مثلا أو تأكيد وجودها لأحد.. لأنها كانت تظهر وتختفي بسرعة.. مما جعله ينتقل للسكن مؤقتا عند صديق له لحين العثور على شقة جديدة.

لم أكترث كثيرا لكلامه.. وأخبرته أن الأمر محسوم بالنسبة لي في موضوع الأشباح.. لكنه راح يتوسل بحرارة أن أمنحه فرصة.. وأنني لن أخسر شيئا لو وافقت على المبيت في شقته ليلة واحدة فحسب.. مع الوعد أنه لن يفتح هذا الموضوع مرة أخرى لو امتثلت لكلامه.. و.. مع إلحاحه الشديد وتوسلاته التي استمرت قرابة نصف الساعة.. وجدت نفسي أميل إلى الموافقة.. فلا ضرر بالفعل من خوض التجربة.. إنها ليلة واحدة فحسب لن تغير شيئا.. لأنني أثق في المنطق العلمي ثقة عمياء.. وأؤكد ثانية أن لا وجود للأشباح.

اتفقت مع تلميذي على قضاء الليلة في شقته المسكونة هذه.. لكن عليّ قبلها الذهاب إلى البيت لأخذ بعض المستلزمات استعدادا لذلك.. في حين ظل يذكّرني بضرورة الحفاظ على تماسكي كي لا أصاب بالرعب وأهرب من الشقة

لأن ما سأراه قد يخيفني.. لكني رددت عليه بحزم أنني لا أخشى أشياء لا وجود لها.. هكذا بكل بساطة.

في نفس اليوم.. ذهبت إلى العمارة السكنية على وصف تلميذي بعد أن أرسل لي خريطة الموقع عبر الهاتف مع رقم الطابق والشقة.. حيث وصلت في الموعد.. وصعدت إلى شقته لأجده في الخارج يقف عند الباب بانتظاري.. فسلمني المفتاح.. ثم اعتذر لي بشدة أنه لن يجرؤ على الدخول.. وسيتركني أقضي ليلتي في الشقة على أن أدرس ما سأراه وأعلن عنه رسميا.. لأن كلام رجل بمكانتي العلمية سيثير انتباه الكثيرين الذين لا يصدقون ظاهرة الأشباح.. وقد أتمكن من حسم الجدل الذي استمر حولها منذ آلاف السنين.

كنت أنظر إليه وأنا أبتسم بأسف على وقته الذي يضيعه في السعي لإثبات تلك الظواهر.. هذا الشاب مولع بالعلم الزائف(1).. آمل أن يعود إلى رشده حين أقضي ليلتي هنا ولا أجد شيئا كما هو متوقع.. أعلم أن هناك من صنعوا بعض الخدع لإثبات وجود الأشباح أو أي ظواهر خارقة أخرى طلبا للشهرة.. لكن الخبراء يكشفون أمرهم دوما حين يخضعون الحادثة للبحث والدراسة.. عموما.. ستتضح الحقيقة كاملة هذه الليلة.

صافحت تلميذي بهدوء.. وأخبرته أنني سأخرج من الشقة غدا صباحا وأعود إلى منزلي.. وسأتصل به لأخبره كيف سارت الأمور.. فأومأ برأسه موافقا.. ثم رحل مودعا.. في حين ظللت أتابع خطواته وهو يبتعد.. لأدير رأسي ناحية باب شقته وأدس المفتاح في القفل.

دخلت ببساطة وألقيت نظرة أولى إلى شقته الأنيقة الراقية بأثاثها البسيط.. أعلم أنه شاب مرتب جدا.. وكان هذا واضحا دوما من عنايته بمظهره.. حتى في أبسط الثياب التي يرتديها.. ولا أنكر أنني ابتسمت قليلا وأنا أتذكر أيام الدراسة

حيث كنت أسكن في شقة شبيهة.

لم أشعر بأي خوف وأنا أكمل استكشافي للشقة وأدندن بأغنية أحبها.. فعبرت الصالة الصغيرة متجها إلى الحمام.. ثم إلى المطبخ.. وأخيرا إلى غرفة النوم حيث توقفت عند الباب وأنا أرى في منتصفها كائنا ضخما مخيفا طويل القامة.. مما جعلني أبحث سريعا عن زر الإنارة في الغرفة وعقلي امتلأ بالفضول.

هنا.. يجب أن أعترف أن الأمر بدا شبيها وكأن جسدي كان يحوي خزانا مغلقا من غاز الخوف منذ سنوات لم أكن أعرف عنه شيئا.. وقد فُتح للتو بوسيلة ما.. حيث تسرّب الخوف إلى كل أنحاء جسدي بسرعة البرق.. هل يعقل أنني أرى ما أراه الآن؟!!.

أحاول أن أسير إلى الأمام.. لكن ساقيّ لا تستجيبان لي وعينيّ تحدقان بذلك الكائن الضخم.. إنها.. إنها جثة لأحدهم بعد أن شنق نفسه بواسطة سلك معلق في سقف الغرفة مربوطا بإحكام بحلقة معدنية قوية.. وقد كانت الجثة تنظر إليّ بعينين مفتوحتين.. والمصيبة أن الجثة كانت لتلميذي نفسه!!.. نعم.. كانت جثته هو.. إذا.. من الذي فتح لي الباب واستقبلني ودعاني للدخول؟!.. من الذي صافحني؟!.

وفي ذروة صدمتي وخفقان قلبي.. تذكّرت فجأة أنني أنا الذي مددت يدي لمصافحة تلميذي قبل قليل.. وأنه امتعض قليلا لذلك.. وكأنه لا يريدني أن ألمسه وأكتشف شيئا غير عادي.. وأتذكّر أن يده التي صافحتني كانت باردة جدا.. كما أنه صافحني بسرعة وسحب يده.. هل لهذا دلالة ما؟!.. هل للأشباح يد باردة مثلا؟!.. وهل نستطيع لمسها؟!.. لا شك في ذلك.. وإلا كيف صافحت يده؟!.. هناك أمر آخر.. لقد بدت لي ملامح تلميذي مختلفة قليلا عما هي عليه عادة.. لكني لم أعر الأمر اهتماما لحظتها.. فجميعنا نبدو مختلفين أحيانا لأسباب مختلفة.

تراجعت إلى الوراء بعد هذا الاكتشاف المرعب.. وخرجت من الشقة وأنا أحمل هاتفي النقال متصلا في الشرطة لأخبرهم بوجود جثة هنا.. ولا داعي للتطرق إلى الساعات التالية.. وإلى سيارة الإسعاف ودوريات الشرطة وتجمهر الطلبة.. فهذه بديهيات لم تعد تخفى على أحد.. كل ما يهمني أن الطب الشرعي أثبت فيما بعد أنه لا توجد أي شبهة جنائية في الحادثة.. وأن تلميذي كان قد انتحر قبل أن أقابله عند باب شقته بساعتين تقريبا.. لماذا انتحر؟!.. هل بسبب ما رآه في الشقة كما ظل يدّعي وقد لوَّث هذا نظرته للعالم رغم انتقاله المؤقت للسكن مع صديق له كما علمنا؟!.. من العسير التأكد من أسباب الانتحار.. خاصة حين علمت أن تلميذي عانى كثيرا في حياته.. نفسيا وماديا.. وقد خرج من علاقة فاشلة أيضا منذ فترة قصيرة.. وهي كلها مبررات إضافية للانتحار.

وبالطبع لم أخبر الشرطة بحقيقة ما رأيت.. لأنهم لن يصدقوني.. بل ادّعيت أن تلميذي دعاني لزيارته.. وأنني دخلت شقته بعد أن وجدت الباب مفتوحا.. لأعثر عليه مشنوقا كما وصفته لكم.. مما أغلق ملف القضية نهائيا.. لكن.. هذه الحادثة فتحت ملفا جديدا في حياتي.. ملفا خطيرا يتعلق بقضية ظلت دوما بين الكذب والتصديق.. قضية الأشباح.. والتي قررت بيني وبين نفسي أن أتبناها وأدرسها وأفتح ملفها على مصراعيه.. نعم.. أعترف أن قناعاتي تغيّرت.. ولا عيب في ذلك.. فالقناعات تتغير.. والأفكار تتطور.. هذه حقيقة أدركتها بعد تلك الحادثة المخيفة التي ستظل أحداثها تلازم ذاكرتي طوال العمر.. والتي جعلتني أتراجع عن عبارتي الشهيرة وأتوقف عن ترديدها منذ ذلك اليوم.. عبارة.. لا وجود للأشباح.

صَعِيق

عليك أن تقتني حيوانا أليفا حتى تفهم سبب شغفي للعودة إلى شقتي للقاء قطتي (لوسي).. لقد اقتنيتها منذ أكثر من عامين حين كان عمرها لا يتجاوز بضعة شهور.. وأصبحت الآن جزءا شديد الأهمية من حياتي.. كنت أفكر بذلك وأنا أودّع أبناء عمومتي بعد أن قضيت ليلتين برفقتهم في رحلة تخييم بمنطقة (العبدلي).. لكني خجلت من إخبارهم بالسبب الحقيقي لرغبتي بالرحيل.. فتعللت لهم بضرورة إنهاء بعض الالتزامات قبل عودة زوجتي وولدي من السفر لزيارة أقارب لها في (المملكة العربية السعودية) بعد يومين من الآن حيث أخذت معها العاملة المنزلية كذلك.. وأمام تمسكي بقراري.. تخاذل أبناء عمومتي وبدت خيبة الأمل على وجوههم وأنا أجمع حاجياتي كي أضعها في صندوق السيارة.. ثم أودّع الجميع مرة أخرى وتبدأ رحلة العودة إلى شقتي التي ستستغرق قرابة الساعة.

كنت أقود سيارتي مسترخيا وفي مزاج رائق للغاية وأنا أدندن مع ما تبثه إذاعة الأغاني.. شاعرا بشيء من اللذة للعودة إلى حياتي الطبيعية وبقائي في الشقة وحيدا في اليومين القادمين رغم حبي الشديد لزوجتي وولدي.. لكني كنت أشتاق لوحدتي كثيرا أيضا.. تلك الأيام التي تقضيها وأنت تملك الحرية المطلقة لتفعل ما تشاء.. خاصة وأننا في إجازة منتصف السنة الدراسية.. ولن أعود لعملي كمعلّم قبل بداية الأسبوع القادم.

وصلت إلى شقتي حاملا حاجياتي ومتلهفا بشدة للقاء قطتي (لوسي).. على أن أقوم مباشرة بتنظيف قاذوراتها وأضع لها المزيد من الطعام.. رغم أنني أمّنت لها طعامها طوال فترة غيابي.. و.. قبل أن ألتفت لأضع المفتاح في ثقب الباب.. انتبهت إلى أن باب الشقة المقابلة مفتوحا على مصراعيه.. فالتفت لا شعوريا لأجد أحدهم يقوم بتحريك قطع

الأثاث كي يضعها في مكانها الصحيح.. وما أن رآني.. حتى خرج مبتسما وهو يمد يده لمصافحتي قائلا:

- مرحبا.. أنا جارك الجديد.. لقد انتقلت إلى هنا اليوم.. وستأتي أختي للإقامة معي حالما أنتهي من ترتيب الشقة.

ألقيت عليه بعض عبارات المجاملة والترحيب وأنا أنظر إليه.. كان نحيلا عادي الملامح سوى عينيه الجاحظتين بوضوح.. ثم.. لا أعرف إن كان هذا فضولا مني.. أم أن ما لمحتُه في شقته يثير انتباه أي شخص آخر لو كان في مكاني.. إذ رأيت عددا كبيرا من التماثيل أقل ما يقال عنها أنها بشعة وتنم عن ذوق بغيض للغاية والحق يقال.. لم تكن التماثيل كاملة.. وإنما مجرد رؤوسها التي كانت بحجم كف اليد.. أو ربما أكبر قليلا.. تحتل كلها عددا من الأرفف التي تغطي جزءا كبيرا من إحدى جدران صالته الرئيسية.. ويبدو أن جاري الجديد لاحظ انتقال عينيّ مباشرة إلى تماثيله هذه.. فقد قال بهدوء غريب وصوت خافت:

- أعتقد أن مقتنياتي لفتت انتباهك.. لِمَ لا تطّلع عليها؟!.

لم أملك الفرصة للرفض.. لأنه أمسك بيدي -التي لم يفلتها منذ أن صافحني- ليسحبني برفق إلى الداخل.. مما جعلني أرمي الحقيبتين اللتين جئت بهما من رحلة التخييم في الممر الفاصل بين الشقتين.. وأدخل معه إلى شقته التي كانت تنم عن ذوق رفيع.. سوى تلك التماثيل التي بدت لي بدائية وقديمة للغاية ولا تنتمي إلى الشقة في أي حال.. ليخبرني بهدوئه الغريب:

- لقد قضيت يوم أمس كاملا بالانتقال إلى هنا بمساعدة بعض العمال.. ويبدو أنك لم تكن موجودا في شقتك كما توحي الحقيبتين اللتين أراهما معك.

ابتسمت من دون رد بمعنى أن ما يقوله صحيحا.. ثم نظرت إلى التماثيل بدقة أكبر.. فابتسم بدوره وهو يقول:

- لا شك أنك تتساءل عن ماهية تلك التماثيل التي على الأرجح لم ترَ مثلها من قبل.. في الواقع أنها انعكاسا لهوايتي كوني أحب السفر إلى أماكن لا يسافر إليها الكثيرون.. وخصوصا الدول التي تتواجد فيها القبائل البدائية في أفريقيا أو أمريكا الجنوبية.. أو شرق آسيا.. وكل ما تراه هنا عبارة عن هدايا من أهالي تلك القبائل.. فبعض التماثيل يتعاملون معها على أنها آلهة ويمنحونك إياها من باب البركة حسب معتقداتهم.. وبعضها الآخر يحسبونها تحمل سحرا من الماضي.. أما أنا فكنت أستمع إليهم باحترام من دون أي سخرية كي لا أثير غضبهم.. فبعضهم قد يقتلك من أجل ذلك.. إن لهذه القبائل عالمها الخاص كما تعلم.

لم أعقّب على كلامه.. بل ظللت أستمع إليه مبتسما فحسب.. ليغير دفة الحديث فجأة ويقول:

- كنت سأدعوك لتشرب عندي فنجانا من القهوة.. لكن للأسف فإن أغراض المطبخ ستأتي بها شقيقتي مساء غد.

قلت بطريقة آلية تنم عن عاداتنا العربية الجميلة:

- نستطيع شرب القهوة في شقتي إن أردت.

لم أتوقع أن يقبل.. فغالبا ما تقابل تلك الدعوات بالرفض.. لكنه ابتسم مرحبا بالفكرة وشكرني عليها.. ليتبعني فعليا إلى شقتي حيث فتحت الباب ووضعت أغراض رحلة التخييم في غرفة المعيشة.. ثم رحت أبحث عن قطتي قبل كل شيء.. لأجدها نائمة تحت طاولة الطعام.. فمددت يدي لأحملها وأمسح على رأسها وأمنحها بعض القُبَل.. كل هذا أمام نظرات جاري الجديد التي لم أفهم كيف أفسرها.. فقد كان ينظر إليّ بتوجس.. قبل أن يقول ممتعضا:

- المعذرة لكني لا أحب القطط كثيرا.

قلت متفهما:

- لا بأس.. إنها لن تقترب منك عموما.. فهي لا تحب الأغراب.

اختلست النظر إلى (لوسي) مبتسما بحنان.. لأرى شيئا غريبا للغاية لم ألمحه أبدا في ملامحها من قبل.. نظرات الخوف والتوجس.. إذ راحت تلتفت بطريقة مريبة.. ثم تحدّق في جاري الجديد.. لتقوم بعدها بالمواء الشديد والاعتراض وكأنها تطلب مني وضعها على الأرض.. وما إن فعلت.. حتى ركضت هاربة إلى تحت أحد الكراسي لتنكمش على نفسها رعبا وعيناها تحملان نظرات خوف يستحيل ألا ألاحظها.. لماذا كل هذا الخوف؟!.. الأمر أكبر من كونها لا تحب الأغراب.. فقد التقت (لوسي) بآخرين من الأصدقاء والأقارب ولم تتصرف بهذه الطريقة أبدا.. عموما.. أنا نفسي لم أشعر بالراحة تجاه جاري الجديد ولا أفهم السبب.. هذا ما طرأ في ذهني وأنا أراه يتجه بخطوات سريعة إلى أبعد الكراسي عن (لوسي) كي يجلس بهدوء.

هززت كتفي استغرابا من دون أن يشعر.. واتجهت إلى المطبخ لأعد القهوة وسط صمته التام.. لأسمعه يقول فجأة وبصوت مرتفع:

- بالمناسبة.. لم نتعارف حتى الآن.. اسمي (صَعِيق)!!.

قالها وكأن اسمه مألوف وعليّ أن أعرفه مباشرة.. فخرجت من المطبخ وأنا أقول مستغربا:

- (صقيع)؟!.

رد بكلمات بطيئة مصححا:

- بل (صَعِيق)!!.

أنا لم أسمع في حياتي بهذا الاسم.. حسنا.. لقد بدأ هذا الرجل يرعبني والحق يقال.. عيناه الجاحظتان.. التماثيل المرعبة التي رأيتها في شقته.. وكل هذا الخوف الذي رأيته في عيني (لوسي) حين التقت به.. فالحيوانات تستشعر الخطر كما نعلم

جميعا.. فأي خطر يا ترى يحمله هذا الشخص؟!.. ثم اسمه الغريب الذي لا أشعر حتى بالرغبة بالاستفسار عن معناه.. كل شيء يوحي أن للرجل أعماقا وأسرارا ما.. علي فقط مسايرته أثناء وجوده في شقتي.. وبعدها سأقطع علاقتي به.. سيكون هذا اللقاء الأخير بيننا.

عدت إلى المطبخ وانشغلت بإعداد القهوة.. لكن.. هدوء مريب يسود المكان.. وصوت غريب للغاية ظهر فجأة.. نظرت من المطبخ لأفهم ما يجري في غرفة المعيشة.. فوجدت (صَعِيق) جالسا متجمدا في مكانه.. المشكلة أنني لم أتمكن من رؤية وجهه.. لأنه كان يوليني ظهره.. مما منح جموده المزيد من الهيبة والرعب.. ولا أنكر أنني شعرت برجفة في كل أنحاء جسدي متسائلا عما يحدث.. فقمت بإغلاق الموقد متناسيا موضوع القهوة.. وذلك الصوت الغريب ما زال يتواصل في الصالة.

خرجت من المطبخ وأنا أنادي (صَعِيق) مرة ومرتين.. لكنه لم يستجب.. وكأنه تحول إلى تمثال.. فسِرْت مستديرا حول الأريكة لأرى وجهه وأفهم سبب جموده.. و.. حركة حادة عنيفة كان من المستحيل أن أتوقعها.. شيء ما كان سيقفز عليّ في لحظة سريعة.. إلا أن (صَعِيق) تحرك بدوره فجأة وضرب ذلك الشيء بكل قوته بواسطة حقيبتي التي كانت على الأرض قريبة منه.

لقد تطلب الأمر لحظات قليلة كي أستوعب ما يحدث وأنا أرى (صَعِيق) يلهث بكل قوته ويتنفس الصعداء.. عندها فقط انتبهت إلى شيء آخر ملقى على الأرض جعلني أتراجع ذعرا.. إنه ثعبان!!.. نعم.. ثعبان مخيف المنظر -وكل الثعابين تبدو مخيفة بالنسبة لي عموما- وقد بدا ساما.. أم أن كل الثعابين تبدو سامة أيضا؟!.. لا أعلم.

المهم أن الضربة كانت قوية وقضت على الثعبان الذي خارت قواه واستقر هامدا في مكانه.. ليقول (صَعِيق) وهو يلهث

متوترا من هول الموقف:

- لقد خرج الثعبان من حقيبتك اليدوية.. لم أنتبه إلا وهو يزحف قريبا مني ليتربّص بي.. منتظرا أي حركة كي يلدغني كما تفعل الثعابين دوما.. لكني تمكنت منه لحسن الحظ.. فقد مددت يدي تجاه حقيبتك ببطء شديد للغاية أمام نظراته المتربصة.. وما إن أتيت أنت.. التفت الثعبان تجاهك.. ووجدتها فرصة سانحة كي أوجه له ضربة قاتلة.. ماذا كان يفعل الثعبان في حقيبتك؟!.. كيف وصل إليها؟!.

قالها لينهض من مكانه ويدوس على رأس الثعبان بكل قوته ليتأكد من موته.. أما أنا فوضعت يدي على رأسي هولا وأنا أكرر سؤاله:

- يا إلهي.. كيف.. كيف وصل الثعبان إلى هنا؟!.

لم يجب.. بل أجبت أنا بالمقابل وبصوت مبحوح:

- لقد كنت في رحلة تخييم مع أبناء عمومتي.. ويبدو أنني لم أغلق سحاب حقيبتي بالكامل قبل النوم ليلة أمس.. فتسلل إليها الثعبان في لحظة ما واستقر فيها.. أي أنه -على الأرجح- كان موجودا في الحقيبة أثناء نومي ليلة أمس.. وأنا لم أفتح حقيبتي اليدوية هذه منذ استيقاظي كوني استخدمتها لوضع ثيابي المتسخة فيها فقط.. لا أستطيع أن أصدق أنني كنت أقود السيارة لساعة كاملة عائدا إلى شقتي من دون أن أعلم بوجود ثعبان في حقيبتي المستقرة على المقعد الخلفي.

رد وهو يزفر بارتياح:

- الآن فقط فهمْت نظرات الخوف التي كانت تحملها قطتك.

نظرت ناحية الثعبان الميت.. ثم سألته منبهرا:

- كيف تمكنت من قتله بهذه البساطة؟!.

قال مبتسما:

- أخبرتك أنني سافرت كثيرا إلى الأماكن البدائية وقابلت الكثير من القبائل.. ورأيت هناك كل أنواع الزواحف والحيوانات.. فلم يعد يخيفني شيء.. كما أنني أعرف الكثير عن الثعابين والأفاعي(2) بسبب سفراتي تلك.. وعلمت أن هذا الثعبان سام.. مما جعلني أتصرف معه بحذر.. وأتجاهلك حين كنت تناديني.

ظللنا صامتين للحظات.. قبل أن تخرج (لوسي) من مخبئها وتسير ركضا تجاهي.. حبيبتي.. لقد أدركَت بغريزتها الخطر المحدق بنا.. وأنا الأحمق الذي ظننت أن الخطر بسبب (صَعِيق) وتلك التماثيل التي يمتلكها.. لقد ظننته ساحرا أو جنيا.. ولم أمنع نفسي من إخباره بذلك.. ليضحك بحرج وهو يقول:

- والدي -رحمه الله- أطلق عليّ هذا الاسم تيمنا بزعيم قبيلة أفريقية.. والاسم يعني (من اشتد دوي صوته)(3).. فقد ورثت حب السفر إلى تلك الأماكن من والدي.. على كل حال.. أحتاج كيسا من البلاستيك.. سأحمل معي الثعبان الميت وأتخلص منه في حاوية القمامة.. فلا أظن أنك ترغب بفعل ذلك بنفسك.. ولا أظن أننا نرغب بشرب القهوة بعد كل ما حدث.

سألته مستغربا وقد تذكرت أمرا آخر:

- مهلا.. أنت لا تخشى الثعابين.. لكنك تخشى القطط؟!.

قالها محافظا على ابتسامته:

- هذا أمر طبيعي.. كل منا لديه مخاوفه.. فمثلا القائد العظيم (نابليون) الذي احتل نصف العالم.. ومؤسس الإمبراطورية المغولية (جنكيز خان).. والقائد السياسي (يوليوس قيصر).. كل هؤلاء كانوا يخشون القطط بشدة(4).. هذه مخاوف لا يمكن التحكم بها.

هززت رأسي متفهما واعتذرت له عن سوء ظني.. وشكرته كثيرا على ما فعله.. فقد أنقذ الرجل حياتي وحياة (لوسي)..

أقولها بكل صدق.. ثم.. ضحكت وأنا أتنفس بارتياح مستغربا من هذه الصدفة الغريبة التي التفّت حول هذا المسكين لأظن به كل هذه الظنون.. خاصة وأنا أرى (لوسي) تجلس على الأرض بالقرب مني وقد عادت إليها ملامحها الهادئة.

ذهبت بعدها إلى المطبخ كي أجلب كيسا بلاستيكيا أخذه (صَعِيق) وارتداه في يده وكأنه يرتدي قفازا.. ثم أمسك بالثعبان الميت.. وبطريقة فنية أخرج يده من الكيس وأقفله على الثعبان.. وخرج من شقتي.

أما أنا.. فقد هدأت أعصابي كثيرا ورحت أبتسم لا شعوريا.. غير مصدق أنني مررت بمغامرة مرعبة كهذه.. حتى أنني فتحت الحقيبة الأخرى بحذر لأتأكد أن شيئا آخر لم يتسلل إليها من دون علمي.. ثم ألقيت كل ثيابي المتسخة في سلة المهملات وقد شعرت أن ذلك الثعبان لوّثها إلى الأبد.. وقمت بتنظيف الأرض جيدا أكثر من مرة بواسطة منظف قوي الرائحة.. أما زوجتي وابني.. فقد قررت ألا أخبرهما بأمر مغامرتي الصغيرة هذه.. لا أريد أن أسبب لهما الاشمئزاز أو الخوف بسبب ما مررت به من لحظات مخيفة -وإن حَوَت بعض الطرافة- مع الثعبان ومع جارنا الجديد.. مع (صَعِيق).

في القطار

لم أشعر بالغربة أبدا طوال السنوات الثلاثة التي قضيتها في (الولايات المتحدة الأمريكية).. بل على عكس الكثير من المغتربين -أو المغتربات في حالتي- شعرت أنني أتأقلم سريعا هناك.. وقد يعود السبب إلى إجادتي للغة الانجليزية واعتمادي على نفسي منذ طفولتي كما علّمني والديّ.. لكن.. في تلك الليلة تحديدا انتابني ذلك الشعور المرير بالحنين إلى بلدي.. وإلى أفراد عائلتي.. فقد أصبت بنزلة برد حادة منعتني من التركيز في مذاكرتي.. ولم أكن أملك ترف الراحة وتأجيل المذاكرة وأنا في وسط فترة اختبارات نهاية الفصل الدراسي.. فكان الخيار الوحيد المتاح أن آخذ علاجا لتخفيف الألم.. علّني أستطيع استكمال مذاكرتي.

المشكلة أن الوقت كان متأخرا.. لذا رحت أبحث في شبكة المعلومات عن أي صيدلية مناوبة.. فوجدت أن أقرب صيدلية تقع في مدينة أخرى تبعد حوالي نصف الساعة في القطار.. مما جعلني أحسم أمري وأرتدي ثيابا ثقيلة وأنا في أسوأ حال ممكن.. لأخرج بعدها من شقتي متجهة إلى محطة القطار والشعور بعدم الأمان يسيطر عليّ.. كوني أسير وحيدة في الظلام والشوارع خلت تماما من المارة.. ويدي في جيبي تتحسس الصاعق الكهربائي الذي تحمله الكثير من الفتيات اللاتي يخرجن لوحدهن هناك.. إلى أن وصلت إلى المحطة بعد حوالي 10 دقائق.. حيث انتظرت بضع دقائق أخرى لوصول القطار.

ركبت القطار الذي خلا من الركاب سوى عدد قليل جدا تناثروا على المقاعد في العربات هنا وهناك.. وبسبب الإرهاق.. أسندت رأسي إلى مقعدي وأغمضت عيني محاولة الاسترخاء.. قبل أن أصل إلى وجهتي أخيرا.. فنزلت متثاقلة كي أشتري الدواء.. لأعود أدراجي إلى المحطة بعد ذلك والأمور ما زالت تسير على خير ما يرام.

نسيت أن أذكر أنّ كراسي القطار كانت مقابلة لبعضها.. وليست متراصة خلف بعضها كما هو الحال في الطائرات.. فانتبهت أثناء جلوسي في طريق العودة إلى شاب مفتول العضلات كما بدا لي رغم ثيابه الثقيلة.. يجلس على الكرسي المقابل وهو يحيط بذراعه فتاة نحيلة شقراء ترتدي وشاحا شبيها إلى حد ما بالذي أرتديه.. وقد دفئت نفسها في ثيابها طلبا للدفء.. وأرخت رأسها على كتف الشاب بطريقة توحي وكأنها تشعر بالاحتواء.. حتى أنني تمنيت لحظتها لو كنت متزوجة بمن يحبني لكي يعاملني بنفس الطريقة.. لكني ما زلت صغيرة على التفكير بالزواج كوني لم أبلغ الـ 20 من العمر بعد.

المهم أن تلك الخواطر تلاشت من ذهني وقد شعرت بشيء من الارتياح لقرب انتهاء مغامرتي الصغيرة.. لكن.. عندما توقف القطار في إحدى المحطات قبل الوصول إلى مدينتي.. دخل إلى العربة شاب جلس بمسافة بعيدة نسبيا عني للحظات.. ثم نهض من مكانه ليأتي ويجلس على بعد نصف المتر من مكاني فحسب.. و:

- عذرا.. هل أنتِ خليجية؟!.

التفتُّ إليه.. ثم تنهدّت وأنا أومئ برأسي إيجابا بشيء من الاستياء.. لأنني كنت واثقة أنه يبحث عن وسيلة لفتح باب التعارف.. وقد كنت محقة في ذلك.. إذ قال فجأة:

- مرحبا بك.. اسمي (مشاري).

هززت رأسي ببرود من دون أن أخبره باسمي على أمل أن يفهم أنني لا أرغب بالتعارف.. فبدأ يحاول بطريقة أكثر إصرارا وهو يسألني عن دراستي وتخصصي آملا أن أتبادل معه أطراف الحديث.. لأجيبه بصبر وبرود على قدر السؤال.. إلا أن ردودي الباردة لم توقفه.. مما جعله يتحدث عن نفسه ويسرد لي بعض مغامراته السخيفة محاولا إضحاكي.. وهو ما يفعله أي شاب

عربي يرغب باستمالة قلب فتاة.. فالتفت إليه وقد نفد صبري.. ونظرت إلى عينيه مباشرة لأخبره صراحة أن الخطوط الحمراء الموجودة في بلداننا تسري علينا هنا أيضا.. وأن عليه التوقف عن هذه الطريقة السخيفة في المعاكسة.

ضحك ساخرا وهو يطلب مني ألا أكون ثقيلة ظل هكذا.. وأن أفسح له المجال للتعارف.. حتى أنني نظرت إلى الشاب الأمريكي الذي يجلس مقابلنا مع صديقته النائمة على أمل أن يتحرك ويقول شيئا.. لكنه -وبحكم تقاليد مجتمعه- لا يرى أي سوء في تصرف (مشاري) الذي لم يفعل سوى التحدث معي.

المشكلة أن (مشاري) هذا تجاوز حدوده حين سألني بابتسامة خبيثة عن مكان سكني.. وأنا لا أعرف كيف يملك أي إنسان المزاج الرائق للمعاكسة في هذا الزمهرير وفي هذا الوقت المتأخر من الليل.. فتجاهلت سؤاله الوقح وطلبت منه أن يتركني في حالي كوني مريضة ولا أرغب في التحدث.. حتى أنني فكرت بالنهوض والتوجه إلى عربة أخرى.. لكن لا أعرف ما الذي منعني من ذلك.. ربما الإرهاق الشديد ونزلة البرد التي استنزفت طاقتي وجعلت المتبقي منها بالكاد كافيا كي أسير إلى شقتي حال توقف القطار في المحطة المطلوبة.. كل هذا و(مشاري) ما زال يضحك ويلقي النكات السخيفة.. إلى أن أصابني اليأس في النهاية.. وأسندت رأسي إلى الكرسي وأغمضت عينيّ بطريقة فَظّة.. وتركته يتحدث كيفما يشاء.

وصلت إلى محطتي أخيرا.. فنهضت من مكاني من دون تحية لأخرج من القطار.. إلا أن (مشاري) -وبكل وقاحة- نهض أيضا ليتبعني وهو يصر على معرفة مكان سكني رغم تجاهلي التام له.. و.. حين خرجنا من القطار وأُقفِلت أبوابه استعدادا للتحرك.. تغيرت ملامح (مشاري) تماما.. ونظر إليّ بجدية بالغة فاجأتني شخصيا.. حتى بدا وكأنه شخص آخر.. ليقول:

- المعذرة لتصرفاتي السخيفة معك في القطار.. لكني فعلت هذا من أجلك.

نظرت إليه متسائلة.. ليكمل بصوت مرتفع وهو ينظر إلى القطار الذي تحرك:

- يجب أن تعلمي أولا أنني طبيب وأقدم حاليا على درجة الماجستير.. لذا لم يكن من العسير أن أنتبه إلى ما رأيت.

لم أفهم ما يريد قوله.. فأردف برهبة:

- ربما لم تنتبهي إلى الشاب الذي كان يجلس أمامك برفقة الفتاة.. لكني انتبهت.. فهي لم تكن نائمة كما يوحي المنظر للوهلة الأولى.. بل كانت ميتة في واقع الأمر.. أو لنقل تعرضت للقتل.. والشاب على علم بالأمر.. ربما هو الذي قتلها!!.

حسنا.. أنا لم أجرب الصاعق الكهربائي الموجود في جيبي من قبل.. لكني واثقة لو استخدمه أحدهم ضدي لما انتفضت بهذه الطريقة.. إذ استعادت عيناي الناعستان عافيتهما فجأة وأنا أنظر إليه بذهول.. ليكمل هو:

- لقد اكتشفت أنها ميتة حال جلوسي في القطار.. ليس هذا بالأمر العسير على أي طبيب.. فرغم أنها كانت ترتدي وشاحا.. إلا أنني لاحظت وجود علامات الخنق حتى الموت على رقبتها(5).. وعلى الأرجح لن ينتبه أحد إلى ذلك.. سيظن الجميع أن الفتاة أسرفت في شرب الخمر وفقدت وعيها كما يحدث كثيرا هنا.

سألته بصوت مبحوح وقد نسيت كل ما يتعلق بنزلة البرد:

- ولماذا لم تخبرني بذلك عندما كنا في القطار؟!.

رد بصدق:

- سيكون من العسير عليك التصرف بطريقة طبيعية وأنت تعلمين بوجود جثة فتاة تجلس أمامك مباشرة.. فكنت أخشى أن ينتبه الشاب إلى توترك وخوفك.. ولا أحد يعلم كيف سيتصرف وقتها.. لا تنسي أنه ربما كان مسلحا.. وبإمكانه مثلا أن يخرج مسدسا ويأمرنا باللحاق به.. ومن ثم يقتلنا في

زقاق مظلم ليتخلص منا كوننا شهودا عليه.. هذه الأشياء تحدث.. لذا ظللت أتصرف بطريقة سخيفة توحي وكأن كل ما يهمني هو تجاذب أطراف الحديث معك وكسب ودك.

شعرت بامتنان شديد له وذهولي لم يتوقف بعد.. ليردف هو:

- كنت أريد إخراجك من القطار بأي وسيلة.. أو أظل معكِ حتى يخرج هو -مع الفتاة أو من دونها- لكي أطمئن أنك ستكونين بأمان.. وها أنت الآن بأمان.

ظللت أنظر حولي يمينا ويسارا.. ثم نظرت إلى (مشاري) بعد أن استعدت توازني.. لأشكره كثيرا.. أشكره من كل قلبي على إنقاذي من خطر محتمل لم أشعر به أصلا.. كما طلبت منه بخجل أن يسير معي إلى شقتي كي أشعر بالمزيد من الأمان.. فوافق مشكورا.. وسار معي باحترام شديد إلى أن وصلت.. حيث ودّعني عند باب شقتي وهو يطلب مني أن أكون حذرة وألا أخرج أبدا في أوقات متأخرة.. وقد ترك رقم هاتفه معي مؤكدا بصدق لمَسْتُه في كلامه أنه لا يرتجي شيئا مني.. فقط يريدني أن أكون بخير وأن أتواصل معه وقت الحاجة.. فشكرته مرة أخرى وأخرى وأنا أدخل شقتي وأغلق الباب.. عالمة أنني خضت مغامرة ربما كانت ستنتهي على خير.. وربما كنت سأصبح ضحية أخرى لذلك الشاب.. فلا أحد يعلم بم كان يفكر وقتها.. لكن المؤكد أنني أدين لـ(مشاري) الذي أنقذني من خطر محتمل كنت سأتعرض له.. في القطار.

اليَد

- دكتور.. أرجوك أنقذني.. إنني في مأزق مرعب!!.

كانت هذه -حرفيا- كلمات الشاب الجالس أمامي.. إذ قالها وهو يلتفت حوله ويتصبب عرقا.. وكأن الأمان انعدم من حياته وباتت الأخطار تحدق به من كل مكان.. فطلبت منه أن يهدأ ويخبرني بمشكلته بالتفصيل علّني أتمكن من مساعدته.. كوني اعتدْت لقاء أشخاص كهذا كل يوم بحكم عملي كطبيب نفسي.

أغمض عينيه محاولا السيطرة على أعصابه.. ليقول بصوت مرتجف:

- المشكلة في يدي اليسرى يا دكتور.. أنا لا أستطيع التحكم فيها.. إنها تتحرك وكأنها تملك إرادة حرة وعقلا خاصا بها.. هذا يحدث لي أكثر من مرة في اليوم.. تخيّل أنك تريد إنجاز عمل ما.. لكن يدك تتحرك من تلقاء نفسها لتقوم بعمل آخر رغم إرادتك.. تخيّل أن تفقد السيطرة على يدك أثناء قيادة السيارة.. فتقوم بأفعال متهورة وكأنها تريدك أن ترتكب حادثا مروريا قد يودي بحياتك.. دعك من المشاكل التي بت أتسبب بها للآخرين أيضا.. فقد تحركت يدي من تلقاء نفسها منذ أقل من أسبوع للاعتداء على جاري.. وقد قدّم شكوى ضدي في المخفر بعد أن تسببت بإصابات عديدة في جسده وأنا أقسم له -أثناء ضربي له- أنني أفعل هذا رغما عني وبمنظر قد يبدو مضحكا لمن يرانا.. إنها واحدة من حوادث عديدة أستطيع أن أخبرك بها بالتفصيل إن أردت.. حتى بت أخشى حدوث ما هو أسوأ.

قلت له مهدئا ومصححا:

- اليد لا يمكن أن تمتلك إرادة حرة خاصة بها.. فكل جزء من أجسادنا يتحرك بواسطة الدماغ فقط.. هناك مشكلة في دماغك.

رد بقهر:

- ربما يكون كلامك صحيحا.. فقد أجريت عملية جراحية لإزالة ورم في دماغي منذ عدة سنوات.

قلت مؤكدا:

- بالضبط.. وحتى لو أجريت العملية الجراحية منذ سنوات كما تقول.. فلا يمكن أبدا التنبؤ بردود أفعال الدماغ.. قد تظهر بعض التأثيرات الجانبية لاحقا وإن كانت متأخرة.

لم يعقّب على كلامي.. وإنما عدل من جلسته وعقد حاجبيه وهو ينحني تجاهي.. ليقول بكلمات بطيئة:

- دكتور.. منذ شهور قليلة.. اتخذت إجراءات صارمة تجاه عدة موظفين من جاليات أجنبية ممن يعملون عندي في شركتي.. فقد أنهيت خدماتهم وأرسلتهم إلى بلدانهم تخفيفا للمصاريف.. وبصراحة.. لم أمنحهم مكافأة نهاية الخدمة التي يستحقونها.. مما جعل أحدهم يستشيط غضبا ويقسم لي أنني سأدفع الثمن.. وأنه سينتقم مني بواسطة السحر.

قلت ساخرا:

- لا تخبرني أنك صدقت كلامه.

هز رأسه نفيا وهو يكمل:

- لقد سخرت من كلامه آنذاك.. لكنه اتهمني بضيق الأفق والغباء وهو يتوعدني بأسوأ مصير.. المهم أنني نسيت الأمر برمته وانشغلت في حياتي الخاصة لفترة من الزمن.. ثم.. قبل حوالي شهر.. وصلني طرد بريدي مجهول المصدر.. فتحته لأجد فيه قطع من البخور وبعض الأدوات البدائية.. فرميت كل شيء في القمامة وأنا أبتسم بسخرية.. بعد أن انتبهت إلى أن الطرد جاء من بلد ذلك الموظف تحديدا -وقد عاد تهديده السخيف إلى ذاكرتي- مستغربا كيفية تصديق الناس لتلك الخرافات.

سكت للحظة وهو ينظر إليّ.. ثم قال بتوتر:

- لكن.. في نفس اليوم.. بدأ تأثير السحر.. حين فقدت التحكم في يدي اليسرى للحظات قليلة.. لتتضاعف المدة في الأيام التالية وبصورة تدريجية.. حتى بت أفقد التحكم في يدي اليسرى عدة ساعات في اليوم الواحد.. لترتكب -رغما عن أنفي- أفعالا مشينة.. فبت أحاول إيقافها بواسطة يدي اليمنى.. أي أنني أصبحت أتشاجر مع نفسي كما أبدو لمن يراني.. ولم يكن هذا بالأمر السهل.. لأن يدي اليسرى راحت تتمرد وتتصرف بعناد شديد للغاية.. الأمر الذي أرهقني جسديا وذهنيا.. دعك من أن مهمة يدي اليمنى أصبحت فقط إيقاف يدي اليسرى.. وأحيانا تفشل في ذلك.. وقد ذهبت إلى العديد من شيوخ الدين والأطباء لكن جميعهم فشلوا في علاجي.

اغرورقت عيناه بالدموع.. لكنه سيطر على نفسه سريعا ليستطرد:

- أصدقك القول أنني فكرت ببتر يدي.. على الأقل سأبدو أمام الناس كرجل يعاني إعاقة.. هذا أفضل من اتهامي بارتكاب أفعال سوداء لا يصدق أحد أنني ارتكبتها رغما عن إرادتي.. وقد أخبرت الجميع بحقيقة ما يجري لي.. وذكرت هذا رسميا في محاضر الشرطة بعد عدد من الأفعال المشينة التي ارتكبَتْها يدي.. لكن لم يصدقني أحد بالطبع.. فكنت أخرج في كل مرة بكفالة.. إنني أجلس أمامك الآن وهناك حوالي 4 قضايا اعتداء وإتلاف ممتلكات مرفوعة ضدي من المتضررين.. وربما لن يسمح لي القاضي بالخروج بكفالة في المرات القادمة.. أو قد يطلب إحالتي إلى مستشفى الطب النفسي للوقوف على حالتي العقلية.

سكت مفكرا.. وسكت هو معي منتظرا مني إنقاذه.. لأقول بعد لحظات من الصمت:

- هناك مرض نادر للغاية يطلق عليه اسم (متلازمة اليد

الغريبة)(6) إن لم تخني الذاكرة.. كل ما تخبرني به يؤكد ذلك.. ربما تعانيه.. سأتعامل مع حالتك على هذا الأساس.. فهذا الجواب العلمي الوحيد الذي أستطيع منحه لك.. وأصدقك القول أنه لا يوجد علاج مؤكد لحالتك.. فأحيانا يتعافى المرء مع مرور الوقت.. وأحيانا أخرى قد يتعافى بالأدوية النفسية.. لذا.. سأكتب لك بعض المهدئات التي ستخفف التوتر الذي تعانيه وتساعدك على النوم والاسترخاء.. وعليك بزيارتي بعد شهر من الآن لنرى تأثير الأدوية عليك.. كما أنصحك بحجز موعد مع استشاري نفسي من أجل بعض الجلسات النفسية التي ستساعدك أيضا.

نظر إليّ بحنق وكأنه لم يقتنع بكلامي.. فقلت مقترحا:

- أو تستطيع زيارة استشاري مخ وأعصاب علّه يحمل لك جوابا آخر.. وأرجو ألا تفكر أبدا بالسحر والشعوذة.

نهض من مكانه غاضبا مغمغما بكلمات مقتضبة عن ضياع وقته بلا فائدة.. وخرج بخطوات سريعة متجاهلا كلامي ووصفتي الطبية.. وهو ما يحدث كثيرا في عملي للأسف.. لكن.. بعد أقل من أسبوع.. وصلني استدعاء من الإدارة العامة للتحقيقات حول قضية ما.. وهو أمر يحدث بين حين وآخر مع الأطباء النفسيين.. فاستجبت مباشرة وذهبت لألتقي بذلك المحقق الذي بدا صارما للغاية وهو يسألني باحترام:

- دكتور.. هل زارك مريض منذ بضعة أيام في مستشفى الطب النفسي.. وأخبرك أنه يعجز عن التحكم في يده اليسرى التي باتت تتحرك من تلقاء نفسها.. وجعلَتْهُ يرتكب العديد من الأفعال المشينة؟!.

أجبت بالإيجاب وأخبرت المحقق بكل ما أذكره عن ذلك المريض والحوار الذي تم بيننا أثناء زيارته لي.. ليرد بهدوء:

- هذا الشخص أنهى حياته بنفسه للأسف مساء أمس.. فقد اتصل قبلها بالشرطة.. وأخبرهم أن يده اليسرى أجبرته على

إتلاف سيارة أحد زملائه في العمل.. تصور أنه ذهب إلى زميله لإبلاغه بما حصل محاولا الاعتذار منه وأنه سيتكفل بإصلاح السيارة.. لكن يده اليسرى كانت له بالمرصاد عندما تحركت من تلقاء نفسها واعتدت على ذلك الزميل حتى تسبب له ببعض الإصابات والكدمات.. فعاد إلى بيته ودخل غرفة المكتب ليطلب من زوجته أن تقفل عليه الباب كي لا يرتكب جريمة أخرى.. وقد اتصل بنا بعد ذلك مستنجدا أن نأتي بسرعة ونلقي القبض عليه.. لأنه بات يخشى أن تتسبب يده اليسرى بالضرر تجاه زوجته وأولاده.. فتحركنا سريعا وذهبنا إليه ظنا أنه يعاني اضطرابا نفسيا ما.. وحين وصلنا.. وجدنا مفاجأة بانتظارنا.

استحوذ المحقق على كل انتباهي وأنا أنظر إليه بقلق مترقبا منه المزيد.. ليكمل:

- لقد طعن نفسه بسكين حادة منهيا حياته.. وهذا ليس كل شيء.. فهناك أمر آخر لا أعرف كيف أفسره.. لقد كانت يده اليسرى مبتورة.. نفس اليد التي ظل يدّعي أنه فقد التحكم فيها.

سألته مبهوتا:

- ما الهدف من بتر يده اليسرى بنفسه ثم الانتحار؟!.. كان بإمكانه الانتحار مباشرة.. وكيف علمت أصلا أنه انتحر ولم يتعرض للقتل على يد أحدهم.. زوجته مثلا؟!.. هناك أكثر من احتمال يجب وضعه في الحسبان.. المعذرة.. هذا ليس عملي.. لكني أرى وجود عدة ثغرات في تلك القضية.

تجاهل كلامي ليقول بغموض:

- مساء أمس.. كان هناك رجل يجلس مع زوجته في صالة شقتهم.. تاركين ابنتهما ذات الـ 3 أعوام تلعب في غرفتها.. فكانا يسمعانها تضحك وهي تتحدث مع ألعابها.. ثم.. خرجت الطفلة من غرفتها وجاءت إليهما مبتسمة وهي تعد من الواحد وحتى الخمسة كما تعلمت من والدتها مؤخرا.

نظرت إليه مستغربا من دون أن أفهم الربط بين الموضوعين.. ليقول:

- المصيبة يا دكتور أن الطفلة لم تكن تفعل هذا بيدها.. بل كانت ممسكة بيد مبتورة دخلَت غرفتها من نافذتها المفتوحة.

شحب وجهي واتسعت عيناي ذهولا.. ليكمل المحقق:

- لقد أطلقت الزوجة صرخة مروعة.. في حين انتزع الزوج اليد المبتورة من طفلته سريعا وباشمئزاز متوقع.. قبل أن يهرع إلى غرفتها ليفهم ما يحدث.. ولم يجد سوى قطرات قليلة من الدماء التي خلفتها اليد المبتورة بعد دخولها الغرفة عبر النافذة.. وكأنها استنزَفت كل الدماء أثناء انتقالها من بيت صاحبها إلى شقة ذلك الرجل التي تقع في منطقة سكنية أخرى وفي طابق مرتفع.. أي لا يمكن أن يكون أحدهم قد دخل غرفة ابنته من النافذة ودس اليد المبتورة فيها من دون أن نعلم مثلا.. ودعني أؤكد لك -قبل أن تسأل- أنه لا توجد أي علاقة من بعيد أو قريب بين الرجل صاحب الشقة والآخر صاحب اليد المبتورة كما أكدت تحرياتنا.

قلت بكلمات مبعثرة:

- كيف؟!.. كيف حدث كل هذا؟!.. إن ما أسمعه منك أقرب إلى المستحيل ولا يصدقه عقل.

قال متفهما ردة فعلي المضطربة:

- ما أريد قوله أن كل التفاصيل والأحداث تخبرنا أن قصة ذلك المسكين حقيقية مهما بدت غرابتها.. وقد قمنا باستدعائك على أمل أن نسمع منك أي كلام علمي قد يفيدنا في هذه القضية المستحيلة.. وإلا.. فإن الأحداث تتجه بقوة إلى عالم الماورائيات الذي لم أؤمن به يوما.

قلت بذهول:

- من المستحيل أن أفسّر الأمر بطريقة علمية مادية.. يا

إلهي.. هل يعقل أن يفعل السحر ذلك؟!.. كيف تتحرك اليد من تلقاء نفسها حتى بعد بترها؟!.. كيف؟!.

تنهد المحقق.. ثم قال:

- لقد تحدث الرجل في أكثر من تحقيق سابق -أثناء الشكاوى التي رُفعت عليه- عن الموظف الذي ظلمه وأرسله إلى بلده من دون أن يمنحه مكافأة نهاية خدمته.. بالطبع لم نصدقه أبدا.. لكني أصدقه الآن.. وأعتقد أنه قام بقطع يده اليسرى بنفسه بالفعل بسبب عجزه عن التحكم فيها.. فقامت بدورها بطعنه في معدته انتقاما وخرجت من النافذة لتطير بعيدا وتستقر في النافذة المفتوحة لتلك الشقة حيث استقرت في غرفة الطفلة.. كلام مضحك؟!.. كلام تافه؟!.. ربما.. لكنه التفسير الوحيد لما حدث.. إلا أنني لن أكتب هذا الكلام في المحضر كي لا أثير ضحك المسؤولين.. فهو أقرب إلى الكلام الهزلي كما ترى.

قلت بألم:

- هذا يعني أنه تعرض للقتل ولم ينتحر.. إلا أن إثبات ذلك مستحيل وغير مهم.. فلن يتم القبض على اليد ومحاكمتها مثلا.. بالمناسبة.. أين هي اليد الآن؟!.. وما الضامن أنها لن تتحرك من تلقاء نفسها لترتكب فعلا ما؟!.

بدا كلامي سخيفا حتى بالنسبة لي.. لكنه رد بشرود:

- تحفظنا عليها في الأدلة الجنائية على أن نقوم بالتخلص منها لاحقا.. من الواضح أنك عاجز عن مساعدتنا.. ولا ألومك على ذلك.. فالقصة تفوق إدراكنا ومنطقنا العلمي بالفعل.. لذا سأترك بعض النقاط في تقريري من دون تفسير.. عموما.. هذا كل شيء.. تستطيع الخروج الآن.. شكرا.

قالها وقد سرت في جسدي قشعريرة شبيهة بالكهرباء.. هل يعقل؟!.. هل يعقل أن تصل حدود السحر إلى هذا الحد؟!.. هذه الحادثة هي المستحيل بعينه.. بل ولا أنكر أنني شككت

بكلام المحقق نفسه في البداية.. ظنا مني أنه يمارس خدعة لغرض ما.. هذا مرعب.. مرعب.

خرجْت من الإدارة العامة للتحقيقات.. وتلك القصة تدور في رأسي حتى هذه اللحظة رغم مرور شهور طويلة على حدوثها.. متسائلا عن كم الأسرار التي يحويها هذا العالم.. وعن عالم السحر المجهول المخيف الذي تحرّمه كل الأديان السماوية.. فما هي حدود السحر؟!.. وإلى أي درجة ممكن أن يستخدمه أحدهم ويستفيد منه.. لا أعلم.. ولا أظن أنني سأعلم يوما.

الخلاص

كنا نعيش ورطة كبيرة لا نعرف طريقا للخلاص منها.. وكان واضحا أن لا أحد قادر على إيجاد الحل.. والدتي تبكي ألما وحرقة على مصير شقيقتي التي جفّت قنواتها الدمعية من فرط البكاء وكأنها تنتظر حكما بالإعدام.. والدي يشعر بعجز تام أصاب رجولته في الصميم.. وبدا لي وكأنه أكبر سنا بكثير مما كان عليه منذ شهور قليلة.. فهو رب الأسرة ويفترض أن يكون المسؤول الأول عن حماية أفرادها بطبيعة الحال.. لكنه عاجز عن فعل شيء.

أما أنا فلم تختلف مشاعري كثيرا عن والدي بعد أن سيطر علي الشعور المرير بفقدان الحيلة.. والذي جعلني جالسا معهم في صالة الشقة منفصلا عن الواقع.. وأرسم في ذهني سيناريو أتخيل فيه نفسي محتضنا شقيقتي وأُسمعها كلمات الاطمئنان مؤكدا لها أنني لن أسمح لأحد أن يمسها بضرر.. لكنها مجرد أحلام يقظة بعيدة عن الواقع للأسف.. خاصة وأنني مجرد طالب في المرحلة الثانوية لم أكمل الـ 17 عاما بعد.

القصة بأكملها بدأت حين تزوجَت شقيقتي من (جمال).. ذلك الثري الذي ظننا جميعا أنه سيحل جميع مشاكلها -وربما مشاكلنا كذلك- عندما ينقلها إلى عالم الرفاهية الجميل الذي لطالما حلمَت به.. بعد سنوات طويلة من الفقر وقسوة الحياة التي عشناها في هذه الأسرة التي يعيلها والدي براتب بالكاد يكفي ضروريات الحياة.

وأرجو ألا يظن أحد أننا كنا نطمع في ثروة (جمال).. فهو الذي تقدم لخطبة شقيقتي حين صادفها ذات مرة في عيادة خاصة وفي يوم مقابلتها حيث تقدمت للعمل فيها كسكرتيرة.. لكن تم رفضها للأسف.. ولم تتمالك نفسها آنذاك بسبب حاجتنا جميعا لوظيفتها.. لتنهمر دموعها حزنا..

فأعجب (جمال) كثيرا بملامحها ورقتها كما قال بنفسه لوالدي فيما بعد.. وحين علم من إحدى موظفات العيادة بالأمر.. أخبر شقيقتي أنه مستعد لمساعدتها ومنحها وظيفة رسمية في إحدى شركاته.. فقبلت مباشرة من دون التفكير إن كانت هناك أي نوايا سوداء يخفيها هذا الرجل.

وبالفعل.. حصلت شقيقتي على الوظيفة.. وبدأت تساعد والدي في بعض الالتزامات المادية.. إلا أن نوايا (جمال) ظهرت سريعا عندما حاول التقرب منها والتحرش بها في أكثر من مناسبة.. وهي تصدّه باستمرار.. لتعود يوميا منهكة وفي حالة نفسية سيئة للغاية.. وأبي يصبّرها بدوره وينصحها أن تستمر بصدّها بأدب واحترام.. وتحافظ على وظيفتها وتؤدي عملها على أكمل وجه في نفس الوقت.. فأدرك (جمال) في النهاية أن الحل الوحيد المتاح أمامه هو التقدم لخطبة شقيقتي رسميا.. وهذا ما حدث بعد شهور قليلة من عملها في شركته.

إذ زارنا مع قريبته في ذلك اليوم ليتقدم رسميا لخطبة شقيقتي.. فشعرنا أن وجوده في شقتنا بحد ذاته أمر غريب ونحن نجلس مع رجل يرتدي ثيابا فاخرة ويقود سيارة بدت لي وكأن قيمتها توازي عمارتنا السكنية بأكملها.. وقد انتبهْت للوهلة الأولى أن (جمال) هذا أكبر من شقيقتي بعقدين من الزمن على الأقل.. لكنها وافقت متجاهلة كل سلبيات ذلك الرجل.. ظنا أنها ستضمن مستقبلها بهذه الطريقة.. ولم يجد والدي بدا من الموافقة بعد كل هذا.

لنكتشف بعد أسابيع قليلة من الزواج.. أن اهتمام (جمال) بشقيقتي وزواجه منها لم يكن سوى نزوة سرعان ما انتهت.. إذ بدأ بعدها في البحث عن فتاة أخرى وأخرى.. لنكتشف أيضا أنه يعيش حياة ماجنة بمعنى الكلمة.. وأنه شديد الغطرسة لا يقبل أبدا أن ترفضه امرأة.. حتى لو وصل به الأمر إلى الارتباط بها رسميا.. كما حصل مع شقيقتي التي رفضت كل مغرياته

قبل الارتباط.

المهم أن هذا الزواج تحول إلى عذاب.. وتعرضَت شقيقتي للضرب المبرح كثيرا على يد (جمال).. أحيانا بسبب خلافات تافهة وأحيانا كثيرة بلا سبب أصلا.. بل كان يفتعل الشجار من لا شيء باحثا عن ذريعة لضربها.. فتسبب لها بكسور ورضوض في كل أنحاء جسدها.. إلى جانب إهانتها متعمدا باستمرار.. كأن يتحدث مع الساقطات هاتفيا ويواعدهن علانية في بيته الآخر الذي اشتراه خصيصا لممارسة موبقاته.

وليت الأمر توقف عند هذا الحد.. فقد كان الحقير يأمر شقيقتي بتنفيذ أشياء منحلّة قذرة لو ذكرتها لكم لمنعت الرقابة نشر قصتي.. وأنا هنا لا أتحدث عن الخمور وتعاطي المؤثرات العقلية مثلا.. بل أشياء تمس شرف شقيقتي وشرف العائلة كلها.. لماذا يفعل كل هذا؟!.. لا أعلم.. ربما لأن شقيقتي رفضته ولم تسمح له بلمسها إلا بعد الارتباط بها رسميا.. فشعر أنها هزمَتْه.. أو لمجرد أنه وغد يرغب بإيذاء من هم أضعف منه.. أما نحن فلَم نجرؤ على تقديم شكوى ضده للأسف.. كون (جمال) يمتلك مكتبا كاملا للمحاماة.. ولو خضنا حربا ضده في المحاكم لدمرنا تماما.. وكان يعلم بذلك.. دعكم من مركزه الاجتماعي ونفوذه.

وبعد محاولات كثيرة علمنا خلالها أن هذا الزواج لا يمكن أن يستمر.. وأن شقيقتي تعيش بسببه عذابا يوميا.. ذهبْتُ مع والدي ذات يوم لزيارة (جمال) والتحدث معه وجها لوجه.. على أن نحاول إقناعه بإنهاء الزواج بالمعروف من دون أن نطلب شيئا إضافيا.. كمصاريف النفقة مثلا.. خاصة وأن شقيقتي لم تنجب منه.. لكن (جمال) استقبلنا باستهتار مهين وكأننا حشرات بالنسبة له.. نعم.. فالفوارق المادية والاجتماعية تصنع عقليات كهذه.. دعكم من بنيته الجسمانية القادرة على سحقي ووالدي في وقت واحد.. لذا لم تكن الزيارة ناجحة أبدا.. بل أنه طردنا صراحة وهو يردد بغطرسة أنه سيطلّق شقيقتي

عندما يشعر بالرغبة في ذلك.

لقد فكرنا في كل الاحتمالات.. منها أن نقنع أحد أقاربه بالتحدث إليه.. لكن شقيقتي أكدت أنها حاولت ذلك بنفسها قبل أن تلجأ إلينا.. لكنهم انسحبوا جميعا ولم يساعدها أحد.. وقد علم (جمال) بالأمر ذات يوم فانهال عليها ضربا وركلا.. وهددها بأسوأ عقاب لو لجأت إلى أحد من أقاربه ثانية.. أي أن كل الطرق كانت مسدودة.. وهذا ما جعل أبي يقول بيأس وسط صمتنا جميعا في غرفة المعيشة حيث بدأت بسرد قصتنا:

- إنه يرفض الطلاق ويرفض معاملتك باللين يا ابنتي.. يبدو أن ليس أمامنا سوى قتله.

بالطبع استعاذت والدتي من الشيطان الرجيم.. وشهقت شقيقتي وهي تنظر مصدومة إلى والدي.. فسكت للحظات ثم قال:

- إنني في أواخر الستينيات من العمر.. ولست في صحة جيدة كما تعلمون.. فلا مانع عندي من مواجهة حبل المشنقة.. صدقوني.. أنا على استعداد للموت.. لكن ليس قبل أن أتخلص من هذا الحقير الذي أهاننا جميعا وجعلنا لعبة في يده.

طلبت من والدي أن يهدئ من روعه ويذهب إلى الفراش على أمل أن نجلس غدا ونفكر بحلول أخرى.. لينصاع إلى صوت العقل ويذهب إلى غرفته.. فذهبنا بدورنا إلى غرفنا للنوم.

في وقت مبكر جدا من صباح اليوم التالي.. استيقظ والدي لكي يستنشق بعض الهواء في الخارج كما يفعل دوما.. ومن ثم الذهاب لصلاة الفجر في المسجد.. لكنه خرج تاركا هاتفه ولم يعد بعد ذلك أبدا!!.. نعم.. لقد انتظرناه طويلا.. ثم خرجنا للبحث عنه.. وسألنا الجيران ممن يرتادون المسجد معه.. إلا أنهم جميعا أكدوا أنه لم يأتِ للمسجد أصلا.. فاتصلنا بكل معارفنا تقريبا.. حتى بـ(جمال) نفسه.. لكن أحدا منهم لم يره.

مما جعلني أتقدم ببلاغ رسمي في المخفر عن تغيب والدي

وقد شعرت أن العالم بأكمله ينهار على رأسي.. وإنني أحمل على عاتقي مصائب أكبر بكثير من عمري.. شقيقتي التي تمر بظروف مرعبة لم تعد تخفى عليكم.. وضعنا المادي الذي أصبح أكثر سوءا بعد أن توقف زوج شقيقتي عن تقديم المال لها وفصلها من وظيفتها أيضا كوسيلة لإذلالها والضغط عليها كي تخضع لأفكاره المريضة.. والآن يختفي والدي -المعيل الوحيد للأسرة- ولا نعرف عنه شيئا.. سلسلة من المصائب التي انهالت علينا من كل مكان.

مر أكثر من أسبوع على اختفاء والدي.. مدة قد تبدو قصيرة للبعض.. لكنها من ناحيتنا بدت أقرب إلى السنة.. فقد كنا نموت عشرات المرات قلقا وترقبا في اليوم.. ناهيكم عن التقشف المالي الشديد الذي عشناه.. وما زاد الأمر سوءا زيارات زوج شقيقتي وضرْبها أمامنا في أكثر من مناسبة.. وضربي أنا شخصيا حين حاولت التدخل.. وعدم اكتراثه إطلاقا بمسألة اختفاء والدي.. حتى أنه صفع والدتي عندما راحت تدعو عليه بقلب منكسر.. صدقوني.. كانت أخلاقه قادمة من عالم النفايات.. كل هذا وأنا تائه وسط هذه الكوارث التي انهالت علينا من دون جدوى.. فأذهب إلى المدرسة.. وأبذل جهدا خارقا للحفاظ على تفوقي.. ثم أقف في وجه المدفع مواجها كل مشاكلنا.. مع التفكير جديا بالبحث عن وظيفة لأعيل أسرتي.

ومع كل هذه الظروف القاسية.. لم أكن أتخيل للحظة أن يأتي الفرج ببساطة شديدة وعلى طبق من ذهب.. عندما تلقينا اتصالا هاتفيا من أحد مخافر الشرطة أخبرونا خلاله أن (جمال) مات!!.. وأن علينا الحضور إلى المخفر حالا.. لأذهب مع شقيقتي مباشرة والأسئلة والاحتمالات تملأ عقولنا كون الشرطة لم تخبرنا بأية تفاصيل أخرى.. فكيف مات (جمال)؟!.. ومتى؟!.. أم أنه تعرض للقتل؟!.. هذا هو المرجح.. وإلا لماذا تواصلت معنا الشرطة؟!.. ولا أنكر أننا شعرنا بشيء من الارتياح

لموته.. فوجوده في حياتنا مشكلة من عدة مشاكل كنا نعانيها وقتها كما ذكرْت.

وصلْنا بعد نصف ساعة تقريبا.. حيث دخلنا غرفة المحقق بتوجس.. لينظر إلينا للحظة.. ثم يقول باحترام:

- هل عندكما أي علم بكيفية موت السيد (جمال)؟!.

نظرْت إلى شقيقتي.. وهززنا رأسينا نفيا.. ثم قلت بعد تردد:

- على الأرجح أنه قتل.. وإلا لما قمتم باستدعائنا.

لم يعلق المحقق على كلامي.. فأكملت صراحة مفرغا كل غضبي:

- عموما.. لم يكن بالرجل الصالح أبدا.. ومن المؤكد أن له الكثير من الأعداء.. (جمال) زوج شقيقتي.. وأعرف جيدا مدى حقارته.

كانت شقيقتي تنظر إليّ باستنكار وكأنني أدين نفسي بهذا الكلام.. لكني لم أهتم.. فهذه الأمور سيعرفها رجال الشرطة عاجلا أم آجلا.. ليقول المحقق وهو يحك ذقنه الحليقة:

- لقد تعرض للقتل فعليا كما تقول.. وفي مكتبه.. بل أن كاميرا المراقبة صوّرَت كل شيء.

انتفضت شقيقتي لتسأل:

- هذا يعني أنكم تعرفون القاتل.

رد وهو ينظر إليّ بثبات:

- أعلم أنك تقدمْت منذ فترة قصيرة ببلاغ عن اختفاء والدك.

سألته بذعر:

- ما الرابط بين الأمرين؟!.. لقد اختفى والدي منذ أكثر من أسبوع ولا نعرف عنه شيئا.

أطلق المحقق زفرة طويلة ثم قال مستغربا:

- أصدقكما القول أنها أغرب قضية مرت عليّ.. لكن يجب أن تعرفا أولا أن والدكما توفي أيضا للأسف.

نظرنا إليه مشدوهين للحظة.. ثم اغرورقت أعيننا بالدموع بعد أن استوعبنا الصدمة.. لتدفن شقيقتي وجهها بين راحتي يدها.. أما أنا فسألت المحقق بصوت مختنق:

- كيف مات؟!.. ومتى؟!.. وأين عثرتم على جثمانه؟!.

رد المحقق وهو ينظر إليّ باهتمام:

- لقد خرج والدك في وقت مبكر من صباح ذلك اليوم -كما ذكرت بنفسك في محضر الإبلاغ عن غيابه- ولم يعد أبدا.. والواقع أنه كان قد خطط لقتل السيد (جمال) منذ مدة.. لأنه حصل منذ حوالي شهرين -وبوسيلة غير قانونية- على مسدس كما علمنا من تحرياتنا.. وفي يوم اختفائه.. تسلل والدك إلى سطح شركة السيد (جمال) بواسطة سطح المبنى المجاور.. ثم راح يزحف عبر ممرات شبكة التكييف المركزي كي ينفذ جريمته.. مستغلا خبرته في صيانة أجهزة التكييف كون هذا عمله ومصدر دخله كما علمنا من تحرياتنا أيضا.. إلى أن وصل إلى فتحة التكييف الخاصة بغرفة السيد (جمال) منتظرا قدومه.. فأصيب بنوبة قلبية.. وقضى نحبه في مكانه من دون علم أحد.. يبدو أن التوتر الذي كان يعيشه كبير جدا.. وعملية التسلل هذه كانت لا شك أيضا شاقة جدا على قلبه.

اتسعت عيوننا ذهولا.. ليكمل هو مستغربا أكثر منا:

- تخيل أن السيد (جمال) ظل يحضر إلى مكتبه لأكثر من أسبوع من دون أن يعلم أن هناك جثة في فتحة التكييف.. فقد أخَّر الهواء البارد المنبعث من شبكة التكييف عملية تحلل الجثة إلى حد ما.. وحين بدأت الرائحة الكريهة تنتشر(7).. اتصل السيد (جمال) بشركة صيانة التكييف ليفهموا السبب.. فجاؤوا وقاموا بفحص شبكة التكييف بالفعل.. ولم يعثروا على شيء.. إلى أن اتجهوا إلى فتحة دفع الهواء نفسها

والتي تطل على غرفة المكتب بطبيعة الحال.. وحين قاموا بفتحها.. سقط منها المسدس الذي كان يحمله والدك.. ليرتطم بالأرض وتنطلق منه رصاصة استقرت في رقبة السيد (جمال) وأصابته في مقتل!!.. صدفة غريبة لا أجد لها تفسيرا سوى أنها إرادة السماء.

كان ما يقوله أكبر من أن يصدقه أحد.. لكنه لم يكن يمزح بالتأكيد.. إن ما حدث يعتبر معجزة بالفعل.. وحلاً جاءنا على طبق من ذهب كما ذكرت.. لتنهار شقيقتي باكية بعد أن استوعبت الصدمة.. ولم يكن الأمر سهلا بالنسبة لي أيضا.. خاصة وأننا اكتشفنا للتو أن والدي قد توفي.. مع حدوث صدفة خارقة لم تكن تتوقعها أكثر العقول تفاؤلا أو خيالا.

لقد تطلب الأمر قرابة السنة قبل أن يُقفل ملف القضية.. ويثبت القضاء أن لشقيقتي حقا في ورث زوجها كونه توفي برصاصة طائشة لم يكن لأبي نفسه ذنبا في إطلاقها -وإن كان قد خطط لذلك قبل وفاته- لترث شقيقتي جزءا من ثروة زوجها.. جزءا غيّر حياتنا وأنهى كل مشاكلنا تقريبا.. فاشترينا بيتا جديدا في منطقة راقية بدلا من شقتنا الصغيرة المتهالكة.. واشترينا كذلك أشياء ضرورية وكماليات كثيرة لم نكن نحلم يوما بالحصول عليها.

أما أنا.. فقد أنهيت خلالها دراستي في المرحلة الثانوية.. وقررت الالتحاق بالجامعة مستغلا الظروف التي جاءت في صالحنا.. واتفقت مع شقيقتي ووالدتي على شراء عقار سكني آخر لكي نستفيد من إيجاره الشهري.. فقط لنحمي أنفسنا من المستقبل المجهول ومن غدر الزمن.. كل هذا بفضل اللّه -سبحانه وتعالى-.. ووالدي الذي أنقذ حياتنا -بعد موته- ومنحنا الخلاص.

صديقتي

كنت أشعر بسعادة بالغة حين خرجت أسرتنا الصغيرة من بيت العائلة المكتظ إلى شقتنا الجديدة التي تلبي كل احتياجاتنا.. فهناك غرفة أمي وأبي.. وغرفة أخرى لي.. مع غرفة ثالثة استغلها أبي كمكتب.. إذ كانت هذه بمثابة مغامرة ممتعة لطفلة في مثل سني لم يتجاوز عمرها الـ 8 أعوام آنذاك.. لذا رحت أدرس كل ركن في الشقة والعمارة السكنية بأكملها من أجل اللعب كوني أتحدث عن فترة أواخر الثمانينيات من القرن الماضي.. تلك الفترة التي لم تكن تعرف الهواتف النقالة والقنوات الفضائية والشبكة العنكبوتية.

عشنا في هذه الشقة سنوات هادئة لا يوجد فيها ما يستحق الذكر سوى ذلك السر الذي احتفظت به لنفسي ولم أخبر به أحدا أبدا.. فبعد حوالي شهرين أو أكثر من استقرارنا في شقتنا.. استيقظْت ذات ليلة في وقت متأخر وبصورة مفاجئة.. وهو ما لا يحدث كثيرا مع الأطفال كما نعلم جميعا.. لكنه ولسبب ما حدث معي.. فظللت على فراشي بعض الوقت غارقة في خواطري الطفولية.. لأنتبه أن سبب استيقاظي هو العطش فحسب.. وهو ما يحدث لنا جميعا بين وقت وآخر لأسباب كثيرة.. أتذكر أنني نهضت من فراشي بتكاسل أستدل طريقي بواسطة مصباح النوم الخافت.. حيث خرجت من الغرفة متجهة إلى المطبخ.. وإلى الثلاجة التي فتحتها لتقع عيني على علبة الحليب بنكهة الموز.. إنه مشروبي المفضل بالمناسبة وما زال كذلك.. لآخذ العلبة وأغلق باب الثلاجة.

عندها فقط انتبهت لأمر شديد الغرابة.. إذ وجدت كوبا فارغا يتوسط منضدة صغيرة موجودة في ركن المطبخ تستخدمها أمي لتقطيع الخضراوات.. هنا كدت أقسم أن هذا الكوب لم يكن موجودا أصلا.. حتى أنني توقفت للحظة وأنا أجري حديثا جانبيا مع عقلي الصغير الذي ظل يحاول إقناعي أن الكوب كان موجودا على المنضدة طوال الوقت.. وأنني -ربما- لم أنتبه

إليه سوى الآن فحسب.. فاستسلمت إلى هذا الاحتمال فعليا ووضعت قطعتي ثلج في الكوب قبل أن أسكب فيه الحليب البارد أصلا.. على أن أتسلى بعد ذلك بالتهام قطعتي الثلج.. ثم أعود إلى الفراش كي أستيقظ مبكرا للمدرسة.

لكن.. عندما اتجهْت إلى غرفة المعيشة ممسكة بالكوب.. وجدت مقعدا خشبيا صغيرا في وسطها!!.. هذا المقعد اشترته أمي لي وتطلب مني باستمرار الجلوس عليه لمشاهدة التلفاز حفاظا على نظري.. لكني أتجاهل طلبها وأصر على الجلوس على الأرض قريبة من الشاشة كما كان يفعل معظم الأطفال آنذاك.. إلى أن يئِسَت مني وباتت تضعه ملاصقا للجدار.. فكيف وصل إلى هنا؟!.. أدركت لحظتها أن هناك شيئا ليس على ما يرام.. أولا الكوب.. والآن الكرسي الذي لم يكن في هذا المكان بكل تأكيد حين مررت عبر غرفة المعيشة ذاهبة إلى المطبخ.

الغريب أنني لم أشعر بالرعب.. بل المفاجأة.. ربما لأن قصص الجن والأشباح لم تكن حاضرة في ذهني آنذاك.. فلا تنسوا أننا نتحدث عن عقول لم تتلوث كثيرا بما تبثه قنوات التلفاز المحدودة في تلك الفترة.. كما كان والداي حريصَين جدا على انتقاء القصص والكتب المناسبة لعمري.. المهم أنني ظللت ألتفت حولي باحثة عن إجابات على تساؤلاتي.. وفي النهاية.. مططت شفتيّ الصغيرتين متجاهلة ما حدث.. لأتناول مشروبي المفضل.. وأعيد الكرسي إلى مكانه في زاوية غرفة المعيشة.. ثم أتجه أخيرا إلى الفراش.

وقد نسيت القصة بأكملها في الأسابيع والشهور التالية التي لم يحدث فيها ما يستحق الذكر.. إلى أن جاءت عطلة الصيف.. فقد تكرر الأمر في إحدى الليالي وفي وقت متأخر نسبيا.. حيث لم يحن موعد نومي الذي حدده لي والداي وهو الواحدة فجرا.. في حين كانا نائمين استعدادا للذهاب إلى العمل صباح اليوم التالي.

أتذكر أنني كنت مستلقية على الأرض أشاهد مسرحية أطفال على شريط فيديو.. إذ كان الفيديو من أهم وسائل الترفيه للأطفال في تلك الحقبة الزمنية.. وأثناء ذلك.. نهضت من مكاني متجهة إلى المطبخ لتناول مشروبي المفضل كالمعتاد.. الحليب بالموز.. وعندما أغلقت باب الثلاجة.. لمحت وجود ذلك الكوب على الطاولة.. كان هذا غريبا.. لأنني كنت متأكدة هذه المرة أنه لم يكن موجودا هناك عندما دخلْت.. فخرجْت مسرعة إلى غرفة المعيشة وقد عادت إلى ذاكرتي الحادثة الأولى.. نعم.. الكرسي كان هناك أيضا!!..

أعدت الكرسي إلى مكانه.. وظللت أفكر كثيرا متسائلة عمن يفعل كل هذا.. ليس والداي بكل تأكيد وإلا لرأيتهما أو سمعتهما على الأقل.. فكان أول ما طرأ في ذهني أن هناك صديقة غير مرئية تساعدني على تنفيذ تعليمات أمي.. فصديقتي هذه تقوم بتجهيز الكوب لي من أجل مشروبي المفضل.. وتقوم أيضا بتحريك الكرسي إلى وسط غرفة المعيشة كي أشاهد التلفاز بوضعية صحية ومسافة مناسبة.. وربما ستظهر لي هذه الصديقة يوما لألتقي بها وجها لوجه.. مما جعلني أبتسم وأترقب ذلك اليوم.. حتى أنني أطلقت عليها اسم (نجوى).. تيمنا بمعلمة في المدرسة كنت أحبها كثيرا.. لماذا افترضت أنها صديقة وليست صديق؟!.. ربما لأنني فتاة أيضا وهكذا أرادها عقلي الطفولي.. وقد قررت وقتها أن يكون هذا سري الخاص الذي لن أجعل أحدا يشاركني فيه.

استمرَّت الحياة على هذا المنوال.. فكنت أجد الكوب على المنضدة كل مرة أرغب فيها بتناول مشروبي المفضل في الأوقات المتأخرة من عطل نهايات الأسبوع أو الإجازات الطويلة.. حيث يسمح لي والداي بالسهر قليلا كما ذكرت.. لأجد بعدها المقعد في ذلك المكان بمنتصف غرفة المعيشة.

لقد حاولْت كثيرا مشاهدة الكوب أو الكرسي وهما يتحركان من مكانهما لتضعهما صديقتي الخفية (نجوى) حيث أجدهما..

لكن ربما كانت ترغب بمساعدتي من دون أن أراها لأسباب مجهولة.. فتملكني ذلك الشعور الجميل أن أحدهم يقوم على حمايتي والاهتمام بي بصورة أو بأخرى.. علما بأن هذا كان يحدث أثناء نوم والديّ فقط وفي الليل تحديدا.. إذ لم تكن صديقتي تفعل أي شيء أثناء استيقاظهما.. ولا حتى أثناء أخذهما قيلولة الظهر.

بعد حوالي 3 سنوات.. علمت من أبي أن أسرتنا أصبحت في وضع مالي أفضل بكثير من السابق.. وأننا قادرين على الانتقال إلى مكان أفضل وأكبر.. وقد شعرت بالقلق وقتها خوفا ألا تأتي معنا صديقتي (نجوى).. لكن.. بدأت أنسى الأمر تدريجيا عندما انتقلنا فعليا إلى شقتنا الجديدة التي كانت أكبر وأفخم.

ومع دخولي مرحلة المراهقة في السنوات التالية وتغيير اهتماماتي.. لم يتبق من (نجوى) سوى ذكرى مشوَّهة لم أكن واثقة من تفاصيلها أصلا.. فأحاول أن أملأ فراغات ذاكرتي بصنع تفاصيل منطقية للقصة كلها.. ثم أنسى الأمر برمته وأعود لممارسة حياتي.. بالإضافة إلى اهتمامي بشقيقتي الصغيرة التي أنجبتها أمي بعد استقرارنا في شقتنا الجديدة بسنتين أو أكثر قليلا.. ومنحتنا سعادة لا يمكن وصفها.

ثم.. جاء ذلك اليوم المخيف.. عندما كنت جالسة مع والديّ في غرفة المعيشة نشاهد فيلما على إحدى القنوات الفضائية التي بدأت تغزو مجتمعاتنا تدريجيا آنذاك.. وقد كان الفيلم مخيف نسبيا يتحدث عن عائلة تواجه في بيتها بعض المواقف المرعبة غير المفهومة.. أتذكر أن أبي ابتسم وهو ينظر إليّ وإلى أمي قائلا:

- سأخبركما بسر أخفيته عنكما لفترة طويلة.. والحقيقة أنني نسيت كل ما يتعلق بشأنه قبل أن أتابع هذا الفيلم.

نظرت إليه أمي متسائلة.. في حين ظللت أستمع إليه وأنا أتابع أحداث الفيلم باهتمام.. ليكمل أبي:

- السر يتعلق بشقتنا القديمة.. لقد سمعت عنها شيئا مخيفا من أحد الجيران آنذاك.. وقد ارتأيت الاحتفاظ بالسر كي لا أخيفكما.. بل وأكدت على جميع جيراننا ألا يصل إلى مسامعكما ما عرفته.

أثار كلامه اهتمامي.. فالتفت إليه بفضول.. ليكمل بغموض:

- لقد أخبرني جارنا أن هناك سيدة كانت تسكن شقتنا القديمة مع ولدها الصغير.. وقد كانت السيدة تعاني من اضطرابات نفسية شديدة.. إلى درجة أنها قامت بقتل ولدها بعد أن وضعت له السم في كوب الحليب الخاص به الذي اعتاد شربه قبل النوم.. ليشربه الولد ويموت بعد لحظات بالفعل.. ثم قامت السيدة بشنق نفسها في وقت متأخر من الليل.. إذ عثروا عليها متدلية بحبل مربوط بالمروحة الموجودة في سقف غرفة المعيشة.. بعد أن دفعت الكرسي الذي وقفت عليه كي تنهي حياتها وينجح انتحارها.

كان ما أخبرنا به أبي مرعبا إلى درجة لا تصدق.. إذ راحت أمي تبسمل وتنطق المعوذتين وهي تلومه على عدم إخبارنا بهذا وقتها.. وأن مجرد السكن في تلك الشقة المشؤومة كان خطأ فادحا.. فاعتذر مبتسما متعللا أن بيت العائلة لم يكن فيه متسعا لنا بعد أن تزوّج أعمامي وظلوا هناك.. كما أن إيجار الشقة كان مناسبا للغاية ويوافق ميزانيتنا المحدودة آنذاك.. وأن حدوث جريمة ما أو حادثة انتحار لا يعني أن المكان تلوث.. و.. كلام كثير لم أستمع إليه.. فقد ارتجف جسدي وعجز لساني عن النطق وقد استرجعت ذاكرتي السيناريو الذي عشته في شقتنا بصورة مستمرة من دون علم أحد.. الكوب الذي أجده على الطاولة في أيام الإجازات التي كنت أسهر فيها.. والكرسي الذي أجده في وسط غرفة المعيشة كل مرة أخرج من المطبخ.. حتى ظننت بعقلية الأطفال آنذاك أن الشبح -صديقتي (نجوى)- تريد الاهتمام بي فحسب.. ليتضح في النهاية أنها تصرفات لشبح امرأة مضطربة مجنونة قتلت ولدها

وانتحرت.. وقد كانت تمارس تصرفاتها الأخيرة قبل موتها.. فتقوم بوضع الكوب على منضدة المطبخ في كل ليلة أسهر فيها تكرارا لعملها حين سمّمت ولدها.. ثم تضع الكرسي في منتصف غرفة المعيشة.. تكرارا لعملها أيضا حين شنقت نفسها.

لماذا كشفت المرأة الشبح عن نفسها لي فقط وليس لوالديّ؟!.. قد يكمن السبب في أنني كنت طفلة.. وأن الأطفال لهم شفافية خاصة تمكن الأشباح من التواصل معها.. وهو استنتاج لا يوجد ما يؤكده.. لكنه تفسيري الوحيد.. أو ربما كنت في عمر ولدها.. وأذكّرها به.. فأرادت ممارسة أمومتها معي.. ماذا عن ولدها؟!.. لماذا لم يظهر شبحه لي؟!.. هذه تساؤلات ستظل بلا إجابة للأسف.

لقد أيقنت لحظتها أن ما عشته في طفولتي كان حقيقيا.. ولم تكن مجرد أحداث مبهمة امتزجت بخيالاتي.. لذا أخبرت والديّ مباشرة بالأحداث التي عشتها في شقتنا القديمة.. فكان وقع المفاجأة كبيرا للغاية عليهما.. واختفت ابتسامة أبي الذي احتضنني وهو يلومني على عدم إخباره بذلك آنذاك.. وبدأ يبسمل كما فعلت أمي.. أما أنا فابتسمت باضطراب وأنا أخبره أنها كانت مرحلة من حياتنا وانتهت.. وأنني تعاملت مع الأحداث وقتها على أنها سري الخاص الذي أشعرني باختلافي عن أقراني الأطفال.. لكني على الأقل أدركت الآن وفهمت أخيرا الأحداث المرعبة التي كانت تجري في شقتنا.. وسر ذلك الشبح الذي ظننته صديقي.. أو.. صديقتي.

ماذا يعني اللون الأحمر؟!

إصابات الرأس هي الأسوأ.. وغالبا ما تتسبب بمضاعفات خطيرة.. ولو توقف الدماغ بسببها عن العمل فسيعني هذا أن فرصة النجاة ضئيلة جدا(8).. إنها حقيقة علمية لم أكن أعرف عنها الكثير.. قبل أن أتعرض لذلك الحادث المروري الذي تسبب لي ببعض الكدمات والجروح و.. ارتجاج المخ(9).. حيث قضيت بضعة أيام في المستشفى نتاج ذلك.

وقد سمح لي الطبيب بالخروج بعد أن لاحظ تحسن حالتي.. إلى أنه طلب مني أن أقوم بمراجعته للضرورة لو استجد أي طارئ.. كالإصابة بالدوار أو الغثيان أو عدم الاتزان أثناء الوقوف.. إلخ.. فمن المستحيل على أي طبيب في العالم معرفة كيفية تعامل الدماغ بصورة واضحة مع إصابات الحوادث.. سواء على المدى البعيد أو القريب.

والواقع أنني كنت أشعر وقتها بتحسن كبير مع الرعاية والاهتمام اللذين حصلت عليهما في المستشفى.. سوى مشكلة النظر.. أو الضبابية في الرؤية إن أردنا الدقة.. لقد ظنه الطبيب عارضا بسيطا وسيزول مع الوقت.. وأن نظري سيعود إلى سابق عهده شرط أن آخذ قسطا من الراحة.. وألا أمارس أي أنشطة رياضية أو ذهنية لحين التعافي التام.

كانت مشكلة النظر تتمثل في تلك الهالات الخضراء.. نعم.. كنت أرى هالة غريبة خضراء اللون تحيط بكل إنسان ألتقي به.. حتى أنا نفسي.. فقد رأيت انعكاسي في المرآة ورأيت الهالة الخضراء تحيط بي أيضا.. لم أكن أعرف ما يعنيه هذا.. في حين ظل الأطباء يؤكدون أن نظري سيستعيد عافيته من دون أن يملك أحد منهم تفسيرا لما يحدث لي.

لكن.. في الأيام القليلة التالية.. انتبهت إلى أمر آخر بديهي لا أعلم كيف فاتني.. وهو أنني أرى كل الموجودات بصورتها الطبيعية.. بما في ذلك الحيوانات.. كالقطط والكلاب مثلا..

ولا أرى الهالات الخضراء إلا حول البشر فقط.. لماذا؟!.. ربما لأن نظري سليم أصلا.. سليم أكثر من اللازم.. إلى درجة أنني أرى البشر بوضوح أكبر مما يفترض.. فقد بدأت أتساءل إن كان الحادث -ولسبب ما- أثر على رأسي بشكل غريب لا تعرفه علوم الطب.. وأيقظ فيه شيئا يجعلني أرى ما لا يراه الآخرون.. وأن تلك الهالات تشير إلى صحة الإنسان!!.. لأن لونها باهت بنسب متفاوتة على الأشخاص البالغين.. وشديد الاخضرار على الأطفال حيث تكون صحتهم غالبا على ما يرام.

أي أنني أمتلك الآن مقياسا واضحا دقيقا لصحتي وصحة الناس الجسدية.. أفضل من أي فحوصات قد يجريها أي مستشفى في العالم.. إنه استنتاج منطقي أشعرني بالراحة والسعادة.. وجعلني أتقبل الأمر تدريجيا وأفكر بالاستفادة من هذه النعمة.. فبدأت أهتم في صحتي كثيرا.. وبت أرى تأثير ذلك من خلال اللون الأخضر الذي ظل يتوهج حولي بقوة حين أنظر في المرآة.

إلا أنني لم أجرؤ على إبلاغ أحد باستنتاجي هذا.. ولا حتى الأطباء أنفسهم.. لاحظوا أنني أتحدث عن موهبة يستحيل أن يعلم بوجودها أحد.. ولا يمكن إثباتها أيضا.. فأنا لا أعرف بعد متى يموت من تحيط به هالة خضراء باهتة.. وإلى أي درجة ستبهت هالته أصلا قبل الموت.. ربما ستتضح الأمور مع مرور الوقت.. هذا ما ظللت أقوله لنفسي.

لقد تسببت تلك المقدرة بابتعادي لفترة من الزمن عن التجمعات واللقاءات العائلية بسبب التشتت والإزعاج البصري الذي تسببه لي هالات البشر الخضراء بكل درجاتها.. حتى أن زوجتي لاحظت عزلتي هذه.. وظنت أنني بحاجة إلى استشاري نفسي ليقف على حالتي النفسية.. وقد اقترحت ذلك فعليا وأنا أرى اللون الأخضر يشع حولها بتوهج واضح -مما يشي بحالتها الصحية الجيدة- لكني ظللت أؤكد لها إنني بخير.. وأنني فقط أشعر بالسلام الداخلي الجميل كون الله -سبحانه

وتعالى- أنقذني من الحادث ومنحني حياة جديدة.

لم تكن القصة لتنتهي عند هذا الحد رغم أن ما ذكرته غريبا ويعد قصة في حد ذاتها.. فقد حدث ذلك التطور الخطير بعد بضعة شهور.. عندما كنت أسير في إحدى الحدائق العامة في أحد ليالي فصل الشتاء.. حيث كانت الأجواء شديدة البرودة إلى درجة خلو الحديقة تقريبا من الناس.. لأجلس على أحد الكراسي بعد أكثر من ساعة من المشي.. وقد كنت غارقا في ثيابي الثقيلة مرتديا ذلك الوشاح الذي يحيط برقبتي.. أتأمل السماء الملبدة بالغيوم وأدندن ببعض الألحان الحزينة.

وأثناء شرودي الجميل هذا.. مر أحدهم أمامي.. فالتفت إليه لا شعوريا.. لأرى رجلا يسير مبتعدا بخطوات سريعة متوترة وقد بدا منظره غريبا للغاية.. ثم انتبهت إلى السبب.. فقد كانت تحيط به هالة حمراء اللون!!.. إنها المرة الأولى التي أرى فيها شيئا كهذا.

ظللت أنظر إليه مشدوها للحظة محاولا استيعاب ما أراه.. ثم نهضت من مكاني وبدأت أتبعه لا شعوريا.. والهالة الحمراء ما زالت تحيط به وتشع منه بقوة.. ما الذي يجعل هذا الرجل تحديدا مختلفا عن كل البشر؟!.. و.. يبدو أنه انتبه إلى أنني أسير خلفه.. إذ راح يسرّع من خطواته بطريقة واضحة.. وكأنه يرغب بالهرب.. لكني ظللت أطارده بإصرار إلى خارج الحديقة.. حتى بعد دخوله ذلك الزقاق الذي عزلنا عن الأنظار تقريبا.

عندها توقف في مكانه.. ثم التفت إليّ وهو ينظر إلى عينيّ مباشرة.. ليتجه نحوي بخطوات سريعة أشعرتني بارتباك شديد.. وجعلتني أبحث عن مبرر مقنع لملاحقتي له.. فلا أظن أنني سأقول له:

- عفوا يا سيدي.. لقد اكتشفت أنك محاطا بهالة حمراء.. وليست خضراء كما هو الحال مع كل الناس؟!.. هل تعرف السبب؟!.

إلا أنه لم ينطق بكلمة.. وإنما هاجمني فجأة وهو يخرج من جيبه مطواة لا تستخدم إلا في الأعمال الإجرامية كما هو واضح من شكلها.. ثم وضعها في وجهي وهو يدفعني دفعا ليلتصق ظهري بجدار أحد البيوت في ذلك الزقاق.. وقد جعلتني المطواة ألغي تماما فكرة مقاومته.. ليسألني بشراسة:

- لماذا تتبعني؟!.

قلت متلعثما:

- لقد رأيتك...

لم أعرف كيف أكمل عبارتي.. فسألني بتوتر:

- كيف رأيتني؟!.. لقد كنت متأكدا أن لا أحد هناك.

اتسعت عيناي ذهولا.. يا إلهي.. إنه يظن أنني رأيته وهو يرتكب جرما ما.. فخرست باحثا عن أي شيء أقوله قد ينقذني من هذا المأزق.. ليكمل هو مذعورا:

- لم أكن أرغب بقتلها.. كنت أنوي سرقة أموالها فقط.. لكنها راحت تصرخ وتطلب المساعدة.. فقمت بكتم أنفاسها لكي أخرسها.. ولم أنتبه إلى أنني أقوم بخنقها في واقع الأمر.. إنني بحاجة ماسة إلى هذا المال.

لم يكن بحاجة ليبرر فعلته.. لكنه بدا شديد التوتر.. إلى درجة أنني تيقنت أن هذا الرجل ليس بقاتل محترف مثلا.. بل قد تكون هذه جريمته الأولى وارتكبها بسبب المال كما يقول.. إلا أنني طرحت تلك الأفكار جانبا عندما قال وهو يرتجف توترا:

- سأقتلك أنت أيضا.. لن يكون هناك أي فارق لو ارتكبت جريمة قتل واحدة أو جريمتين.. فلا يمكن أن أترك خلفي أي أثر.

أخبرته بذعر أنني لم أره وهو يرتكب جريمته ولا أعرف شيئا عن الأمر.. وأنني طلبت التحدث معه لسبب آخر أصلا..

و.. انتبهت فجأة إلى أنني سأموت فعليا إذا لم أتحرك الآن.. لأنه لن يصدقني أبدا لو أخبرته عن سبب ملاحقتي له.. وهذا ما جعل الحماس يشتعل بي مدعوما برغبتي في الحياة.. إذ دفعته بكل قوتي.. ليختل توازنه كونه لم يتوقع مني ردة الفعل هذه.. ثم رميت كل ثقلي عليه لألتحم معه ونخوض معا شجارا عنيفا للغاية انتصرت فيه بعد أن جعلتني غريزة البقاء أنتزع منه المطواة وأحذفها بعيدا.. لآخذ الوشاح الذي سقط مني أثناء قتالنا وأربط قدميه بيديه.. وأتصل بالشرطة وأنا أقف -حرْفيا- على الشاب وبطريقة مضحكة.. فقط كي لا يحاول فك قيده.

لم يطل الأمر كثيرا.. فقد حضر أفراد الشرطة بعد فترة قصيرة ليقبضوا على الرجل ويتم إسعافنا من كل الجروح التي سببناها لبعضنا.. ثم قاموا بأخذنا إلى المخفر للتحقيق.. حيث أخبرتهم أن الرجل مر أمامي في الحديقة.. وقد بدا متوترا قلقا وكأنه في مأزق ما.. فنهضت كي أسير خلفه لأناديه وأحاول مساعدته إن كان يحتاج شيئا.. لكنه شعر بي وسارع بخطواته.. مما جعلني أشك أنه ارتكب جرما ما.. فهاجمني حين لاحظ ملاحقتي له.

لقد حاول الإنكار في البداية والادعاء أنه دافع عن نفسه لأنني كنت أنوي سرقته.. إلا أنهم عرفوا الحقيقة سريعا حين اكتشفوا أن الرجل محاصرا بالديون.. وأنه يخفي في طيات ثيابه كيسا بلاستيكيا قام بلفّه بعناية ويحوي مبلغا كبيرا من المال.. كما عثروا على جثة السيدة التي تتبعها وقتلها في مواقف السيارات بعد انتهائها من سحب مبلغ من المال من جهاز الصرافة.. ومع محاصرته بكل المعلومات.. انهار باكيا واعترف بكل شيء.

وبالطبع ظن أفراد عائلتي أنني سيئ الحظ لأنني تعرضت لحادث مروري منذ شهور قليلة.. واليوم كدت أتعرض للقتل أيضا.. ولا أعرف في الواقع إن كنت سيئ الحظ.. أم حسن الحظ

لأنني نجوت في المرتين.

لنأتي بعدها إلى أهم نقطة في القصة.. حين قال لي المحقق معاتبا:

- تصرفك هذا لا ينم عن شجاعة كما قد تظن.. بل تهور.. كان من الممكن أن تتعرض للقتل.

لم أرد.. بل سكتُّ طويلا وأنا أنظر إلى الهالة الخضراء الباهتة نسبيا التي تحيط به.. فأومأت برأسي بجمود وخرجت من المخفر بعد انتهاء التحقيق.. ليعود تفكيري إلى الهالة الحمراء.. ماذا يعني اللون الأحمر الذي كان يحيط بذلك الرجل؟!.. عندها فقط قفز إلى ذهني ذلك الاستنتاج.. أن الهالة الخضراء لم تكن في الواقع تشير إلى صحة الناس كما كنت أظن.. بل إلى ضمائرهم!!.. نعم.. إنني أرى ضمائر الناس.. فكل من يعيش مرتاح الضمير.. يشع اللون الأخضر حوله.. وتتباين درجة اللون حسب راحة ضمير كل إنسان.. أما من يشعر بتأنيب شديد للضمير نتاج قيامه بعمل شديد السوء -كجريمة قتل مثلا- ستحيط به الهالة الحمراء.. تماما كما حدث مع ذلك الرجل الذي كان قد ارتكب أول جريمة قتل في حياته بسبب حاجته الماسة إلى المال كما علمنا.. أي أنه ليس قاتل متمرس يرتكب جرائمه بدم بارد.. هذا هو التفسير الوحيد.. ولهذا أيضا تشع الهالات الخضراء حول الأطفال بقوة.. فمن العسير للغاية أن نجد طفلا يشعر بالذنب.. لقد ظننت كذلك أن توهج الهالة الخضراء حولي يعني أنني في صحة جيدة.. والواقع أنني كنت فقط أشعر براحة البال والسلام الداخلي.. مما يعني في النهاية راحة الضمير.

لكن هذا التفسير -لو كان صحيحا- لن يقدّم لي أي فائدة.. فهناك سارقون وقتلة ونصابون قد تحيط بهم الهالات الخضراء -المتوهجة أو الباهتة- لأنهم بلا ضمير أصلا.. أو على الأقل لا يشعرون بتأنيب شديد للضمير.. أي أن الأمر ازداد تعقيدا بالنسبة لي.. لكني سأفكر بحل ما لأساعد العدالة..

على الأقل سأحاول ملاحقة أي شخص تحيط به هالة حمراء.. لأنه على الأرجح ارتكب فعلا مشينا.. آمل أن يكون تفسيري صحيحا.. فكل المعطيات تؤكد ذلك.. على كل حال.. لا أعلم ما الذي ستخبئه لي الأيام القادمة.. لكني أعلم أنها ستكون حافلة بالكثير.. بعد أن فهمت سر لون الهالة التي أحاطت بهذا الرجل وربما تحيط بآخرين قد ألتقي بهم يوما.

أنفاسي الأخيرة

إنني على قيد الحياة.. لا يمكن أن يكون هذا شعور الميت.. لأنني أتنفس -وإن كان تنفسي خافتا للغاية- وأشعر بكل شيء حولي.. وهناك آلام مبرحة في جسدي.. وأرى كذلك إضاءة الغرفة.. خاصة هذا المصباح المزعج الموجه إلى وجهي مباشرة ويكاد يصيبني بالعمى.. إنني أعجز حتى عن إدارة رقبتي يمينا أو يسارا لأتجنب الضوء.. أحاول أن أغلق عيني على الأقل.. لكن.. شيئا ما يمنعني.

أصبت بحالة ذعر جعلتني أنتبه إلى بقية أجزاء جسمي فحاولت أن أحرك أيّا منها.. لا.. هذا غير معقول.. وكأنني مصاب بشلل كامل جعلني أقرب إلى تمثال مستلقٍ على هذا الفراش.. ما الذي يجري لي؟!.. أين أنا؟!.. هناك من يتحدث في أحد أطراف الغرفة.. حديثه جعلني أدرك أنني في مستشفى ما.

أحاول أن أتمالك نفسي علّني أتمكن من تفسير ما يحدث لي.. لأتذكر أنني قرأت يوما في أحد مواقع التواصل الاجتماعي عن الدراسة التي تشير إلى أن الإنسان عندما يموت فإنه يستوعب ذلك.. ويدرك أنه قد مات.. لأن الوعي يبقى مستيقظا حتى لو توقف قلبه.. أي أن الإنسان سيسمع صوت الطبيب وهو يعلن موته(10).. لا.. لا.. أنا أشعر بنبضات قلبي وإن كانت ضعيفة.. وهو ما يخالف تلك الدراسة.. إنني حي.. لم أمت بعد.

عندها فقط بدأت أتذكر.. لقد تعرّضت لحادث مروري.. نعم.. أتذكر لحظات انقلاب السيارة.. والدماء التي كانت تسيل من رأسي بغزارة وتصل إلى فمي.. ثم فقدان الوعي.. يا إلهي.. يبدو أن إصاباتي قوية كي أصل إلى هذه المرحلة من الشلل غير المفهوم.

تلاشت كل أفكاري حين سمعت صوتا ذكوريا يقول بآلية

واضحة وكأنه اعتاد رؤية مشاهد الموت:

- هذا الشخص توفي.. ولا يمكننا إنقاذه.

لمحت إصبعه وهو يشير إلي.. إنه الطبيب.. يا للكارثة.. إنهم يظنونني ميتا إذا.. ألم ينتبه لدقات قلبي؟!.. أم أنه لم يبذل الجهد أصلا ليتأكد.. فربما اكتفى بجسدي المتخشّب وعينيّ الجاحظتين اللتين أصابهما الجفاف كوني أعجز عن إغلاقهما.. أرجوكم ساعدوني.. أصرخ في أعماقي.. لكن صراخي لا يصل إلى أحد.. الطبيب يقترب مني من دون النظر إلي.. ليقول للممرضة بأسف وسط نظراتي المذعورة التي عجزت عن ترجمتها إلى ملامحي المشلولة:

- يجب القيام بالإجراءات المعتادة كي يتم أخذ جثمان الميت إلى ثلاجة المستشفى لحين العثور على أقاربه.. لقد كان حادثا مروعا تحطمت على إثره سيارته كما علمت.. والإصابات ملأت جسده وتسببت بوفاته.

هذه كارثة.. الأمر أكثر رعبا من الموت.. إننا نتحدث هنا عن الموت البطيء.. سأكون في ثلاجة المستشفى الباردة الضيقة والبرودة تسحب روحي مني حتى الموت.. أي أنني سأُدفن حيا.. أحاول أن أبذل جهدا خارقا لتحريك أحد أصابعي على الأقل.. لكن هذا بدا مستحيلا.. فجسدي يرفض الاستجابة لعقلي.. كيف أخبر هؤلاء أنني على قيد الحياة وأن عليهم إنقاذي؟!.

الممرضة تقول للطبيب بأسف:

- إدارة المستشفى تبحث عن أقاربه -بمساعدة الشرطة- منذ ساعات بعد أن عثروا على محفظته في السيارة وأخذوا منها بياناته.. لكنهم لم يعثروا على أي قريب له.. كما أن هاتفه النقال تحطم جراء الحادث للأسف.. فلا يمكننا التواصل مع أي من معارفه أو أصدقائه.

المشكلة أن لا أقارب لي بالفعل.. إنني وحيد.. لكن لا أظن أن هذا سيفيدني في كل الأحوال.. فحتى لو كان لي أقارب..

ستكتفي إدارة المستشفى بإبلاغهم أنني ميت فحسب.. ثم يقومون بوضعي في ثلاجة المستشفى وأنا على قيد الحياة.. سيكون هذا مصيري في كل الأحوال.. كيف أنجو من هذه الورطة؟!.. أريد من يكتشف أنني لم أمت بعد.. ماذا أفعل؟!.

أسمع بعدها الممرضة تتصل بأحدهم في المستشفى.. ثم تخبره عن شخص توفي وأن عليهم المجيء وأخذ جثمانه إلى الثلاجة.. إنها تتحدث عني.. وتذكر لهم اسمي كاملا.. تخيّل أن تكون على قيد الحياة وتسمع من يتحدث عن موتك ويقوم بترتيبات إعلان وفاتك.

أسمع صوت خطوات الممرضة وهي تخرج من الغرفة.. لتغلق الباب خلفها.. هل أنا لوحدي الآن؟!.. لا.. أشعر بأحدهم يقترب مني.. ثم ينظر إليّ مباشرة.. إنه الطبيب.. لقد اكتشف أنني على قيد الحياة.. فهو يبتسم في وجهي.. لا يهم كيف علم بذلك.. المهم أنه سينقذني.. حمدا لله.. لكن فرحتي تلاشت بسرعة عندما ألقى على مسامعي بقنبلة لم أتوقعها أبدا.. إذ قال بصوت خافت:

- أعرف أنك على قيد الحياة؟!.. أنا وحدي أعلم أنك لم تمت بعد.

ملامحي جامدة لكن مشاعري كانت تلتهب ذعرا من قوة المفاجأة.. ليكمل الطبيب هامسا في أذني:

- إنك مصاب بما يطلق عليه اسم (متلازمة المُنحَبِس التامة) (11) بعد أن تعرض رأسك لإصابات بالغة جراء الحادث.. لهذا تعجز عن تحريك عضلاتك.. كما أن تنفسك ضعيف للغاية.. لكني اكتشفت أنك على قيد الحياة بسبب خبرتي الطويلة في الطب.. سأنهي حياتك بنفسي.. وفي هذا متعة لا توصف.

لم يكن هذا كل ما قاله.. فقد التفت حوله للحظة ثم أردف مبتسما:

- أعلم أنك تتاجر بالمخدرات وأضعت حياة العديد من الشباب

ودمرت أسرا كثيرة.. وفي كل مرة كنت تفلت من العدالة بسبب الثغرات القانونية التي استغلها محاميك جيدا.. كيف علمت كل هذا؟!.. من صديق حميم لي في القطاع الأمني.. إنه ضابط شرطة يؤمن برسالتي ويتعاون معي باستمرار وعلى اتصال دائم بي.. فقد اتفقت معه منذ سنوات على تنفيذ القصاص وتحقيق العدالة تجاه من عجز القانون عن الإيقاع بهم.. وقد أرسلت له رقم هويتك -كما أفعل مع كل حالة حرجة تصل إلى المستشفى- فأخبرني بتاريخك الأمني كاملا.. أعتقد أن العالم سيكون مكانا أفضل من دونك.

لم أتمالك نفسي لأفكر بما قاله.. فأعصاب دماغي تتقاذف هنا وهناك ذعرا.. خاصة حين قاموا بنقلي إلى مثواي الأخير وأنا لم أمت بعد.. إلى ثلاجة المستشفى.. وأغلقوا الباب بإحكام.

ظلام.. برد شديد.. وشعور الاختناق المرعب الذي يجعلك تفقد صوابك محاولا التمسك بالحياة من دون فائدة.. والأسوأ أنك تعجز عن اتخاذ أي رد فعل.. إن أنفاسي تتوقف.. ووعيي يغيب عني ببطء ولن يعود.. إنني أموت.. إنني.. ألفظ أنفاسي الأخيرة.

خاتمة

عزيزي القارئ.. لم أشأ أن أروي القصة على لساني.. فقد وجدت أنها ستكون أجمل لو سردتها على لسان المجرم نفسه محاولا تقمص مشاعره وهو في هذه الحالة.. نعم.. أنا الطبيب الذي أنهيت حياته.. وهي ليست المرة الأولى التي أنهي فيها حياة أحدهم.. فأنا أقتل المجرمين الذين يأتون مصابين إلى المستشفى.. بعد أن أتأكد بنفسي من سِجلّهم الجنائي كما تبين لكم في سياق القصة.

صدقوني.. لقد أنقذت الناس من شرور الكثيرين فيما مضى.. فلا أنسى أبدا تلك الفتاة التي جاءت إلى المستشفى لرؤية شقيقها الوحيد بعد أن تعرض إلى حادث مروري كذلك.. إذ سمعت منها أن شقيقها هذا كان يعنّفها ويضربها ويسيء معاملتها كثيرا.. حتى أنه كان يستولي على راتبها.. فباتت تهابه وتراه فوق القانون.. وقد جاءت إلى المستشفى بسبب اتصالنا بها كونها الوحيدة المتبقية من عائلته.

لقد أخبرَتْني بتلك التفاصيل بنفسها عندما استدرجتها بالكلام وسألتها عنه.. من المفيد أيضا ألا تكتفي بالبحث في السجل الجنائي للمريض أو المصاب.. بل تسأل أقاربه عنه كذلك.. وهذا ما جعلني أنهي حياة شقيقها بطريقة طبية تخدع رجال الأمن.. ولا أنسى نظرات الارتياح على ملامح الفتاة حين أخبرْتها أن شقيقها توفي من دون أن أخبرها بحقيقة موته بالطبع.. وهناك قصص كثيرة أخرى وأخرى أنقذت فيها الأبرياء بعد أن أنهيت حياة مجرمين ولصوص وتجار مخدرات وأوغاد يمارسون العنف الأسري.. إلخ.

ما زلتم تقولون أن ما أفعله غير أخلاقي؟!.. وأن هذا ينافي قواعد مهنة الطب التي تحتّم عليّ علاج الجميع؟!.. لا أتفق مع هذا الكلام.. لأننا بتنا نعيش في عالم مخيف يسيطر فيه الشر على كل جوانبه.. وقد فقدت الثقة بالقانون.. وأرغب بتطبيق

العدالة على طريقتي الخاصة.

إنني أدرك جيدا أن الأبطال الخارقين من عالم الخيال.. لكني أستطيع أن أكون واحدا في عالم الواقع.. حتى لو لم أمتلك قوة خارقة.. تماما كما تصرفت في قصتنا هذه.. وأنقذت المجتمع من مجرم جعلْته يحترق قهرا وهو يستمع إلى كلماتي المتشفية الشامتة عاجزا عن الدفاع عن نفسه.. وهو على فراشه.. فراش الموت وبأنفاسه الأخيرة.

المُجَسَّم

أعلم أن الخبر كان بمثابة الصدمة لجميع أصدقائي وأفراد عائلتي.. أن أتزوج امرأة عجوزا في عمر والدتي.. فهي في أواخر الستينيات من العمر.. في حين أنني في بدايات الثلاثينيات.. لماذا تزوجتها؟!.. لأنني وجدت فيها مخرجا لجميع مشاكلي.. مشاكلي التي يجهلها الناس.. فبنظرهم أنا محل حسد الجميع بسبب وسامتي الشديدة وقوامي الرياضي الفارع.. وهي حقيقة أدركها جيدا ولا مكان للغرور هنا.

لكن ظلّت في حياتي بعض المنغصات التي تشتت انتباهي وتجعلني شديد التوتر طوال الوقت.. أبرزها وضعي المادي السيئ الذي جاء كنتيجة متوقعة لعدم إكمالي لدراستي الجامعية.. ومن ثم اكتفائي بوظيفة متواضعة الراتب لا تتناسب أبدا مع شاب مثلي يحب الحياة.. فوصلت إلى هذه السن غارقا في الديون التي أسددها للبنوك ولأشخاص استلفتُ منهم في الماضي.. حتى لم يعد يتبقى من راتبي شيء يذكر.. وقد كنت حريصا على عدم اللجوء لأشقائي لأنني أدرك جيدا التزاماتهم المادية تجاه أسرهم.

لذا أستطيع أن أقول أن زواجي بتلك السيدة العجوز -مخيفة الشكل والحق يقال- بمثابة طوق النجاة.. فقد التقيت بها في مقر عملي الحكومي لإنجاز معاملتها.. حين انتبهْتُ إلى نظرات الإعجاب التي تحيطني بها ومن ثم أسئلتها الكثيرة عن حياتي الخاصة.. وانتهاء اللقاء بطلبها رقم هاتفي بجرأة وبطريقة لم أجرؤ فيها على الرفض.. لتتصل بي في نفس اليوم وتؤكد لي صراحة إعجابها بي.. وتخبرني أنها سيدة ثرية للغاية ورثت مبالغ ضخمة من زوجها الذي توفي منذ بضع سنوات.. فكان هذا تلميحا واضحا لمحاولة إثارة إعجابي.

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد.. فقد استمرت السيدة باتصالاتها وبصورة شبه يومية لتتبادل الحديث معي حول أمور

كثيرة كشفنا خلالها كل ما يتعلق بحياتنا الخاصة تقريبا.. حيث اعتبَرْتها مجرد صديقة لن تتطور علاقتي بها إلى ما هو أكثر من ذلك.. إلى أن عرضَت عليّ ذات يوم فكرة الارتباط بها رسميا مقابل أن تنقل حياتي بأكملها إلى مستوى مادي واجتماعي أفضل.. وأصدقكم القول هنا أنني لم أفكر أبدا بأمر الارتباط.. فالفوارق بيننا هائلة.. كما أنني شاب شريف لا أقبل باستغلال الناس.

لكني بشر كذلك.. وكان من العسير ألا أضعف أمام إلحاحها وكل الإغراءات التي وعدت بتقديمها.. فوجدت أن حياتي ستكون أفضل بكثير مما هي عليه لو وافقت على الزواج منها.. ولن أواجه أي مشاكل سوى نظرات وكلمات الاستنكار من المجتمع.. وربما نظرات الأسف لظنهم أنني أقوم باستغلال وسامتي.. لكن لا تنسوا أن السيدة هي من عرضَت عليّ الزواج.. وأنا لم أكن أنوي أبدا إلحاق الضرر بها أو سرقتها.. لذا.. وفي النهاية.. قررت الموافقة.

جرت الأمور بسرعة كما هي العادة في زيجات كهذه.. فأقمنا حفل زفاف مصغّر جدا في فيلتها الفاخرة حضرَه 2 من أشقائي.. وابن زوجتي الذي يعيش في الخارج.. حيث بدا وكأنه لا يكترث كثيرا لهذا الزواج.. بل جاء لتأدية واجبه فقط تجاه والدته.. على أن يسافر في القريب العاجل ليعود إلى محل إقامته كما علمْت منه.. وقد حرصْت -وبكل صراحة- على عدم دعوة أي أشخاص آخرين كي أتجنب نظرات الاستنكار.

لم يكن هناك أي شيء آخر يلفت النظر سوى الكعكة التي بدت أكبر من حفل الزفاف نفسه.. كعكة فاخرة جدا اختارتها زوجتي بعناية ووضعت عليها مُجَسَّما جميلا لعريسين كما نرى في معظم كعكات الأفراح.. العروس بفستانها الأبيض الطويل.. ويقابلها تماما العريس ببذلته السوداء ممسكا بيديها وجبهته ملتصقة بجبهتها.. وكأن كل منهما يرى العالم بأكمله من خلال الآخر.

بدأت حياتنا الزوجية بعد ذلك بما يوحي أن الأمور ستسير في أفضل صورة بالنسبة لي.. إذ قامت زوجتي بتسديد جميع ديوني كما وعدَت.. وطلبت مني أن أترك وظيفتي لأدير أعمالها الخاصة مقابل راتب ضخم لم أكن أحلم به.. فأخذْت بكلامها وتوجيهاتها إلى أن استقرّت أموري المادية في فترة قصيرة لم تتجاوز السنة.. ليبدأ الشعور المتوقع بالملل يطل على حياتي.. وأبدأ بالنظر إلى الجانب السلبي من زواجي.. بوجودي مع امرأة عجوز قبيحة الشكل من العسير للغاية أن أشعر بالانجذاب ناحيتها.. وأنني قد أعيش معها لسنوات طويلة إلى أن تموت أو أموت أنا.. كيف فاتتني بديهيات كهذه؟!.. إنها الحاجة الماسة للمال والظروف التي كنت أعيشها قبل الزواج.

وهذا ما جعلني -مع مرور الأيام- أفكر بموضوع الطلاق.. وأنني قد أتمكن من إنهاء زواجنا هذا بطريقة ودية.. عالما أن زوجتي ستراني وغْدا تخلّى عنها حال انتهاء مشاكله.. وأنها ستنتقم من خلال طردي من وظيفتي.. لكني أقبل بهذه التضحية بعد أن صرت خاليا من الديون.

بعد تفكير طويل بموضوع الطلاق.. اتخذت القرار وعقدت العزم على التحدث معها أثناء جلوسنا معا في غرفة النوم نشاهد التلفاز حيث بدت مخيفة وهي تحدق بالفراغ.. وكأن عقلها في مكان آخر بعيدا عما تبثه القناة.. ليطرأ في ذهني أمر بديهي لم أفكر به من قبل.. فزوجتي غريبة الأطوار سلوكياتها غير مفهومة.. إنها لا تخرج إلا نادرا ولا تقضي وقتا طويلا أمام هاتفها كما نفعل جميعا.. كما أنها صامتة معظم الأوقات بطيئة في ردود أفعالها.. ربما إدارتي لشركاتها وكثرة ارتباطاتي ومسألة إنهاء ديوني في الفترة السابقة جعلتني لا أنتبه إلى تلك الأمور.

طرحت أفكاري جانبا.. وقررت أن أفتح الموضوع.. واخترت نقطة فارق السن بيننا كونها الأسهل والأوضح.. فبدأت التحدث

عن احتياجات كل الشباب في مثل عمري.. ونمط حياتي الذي أتمناه.. وهي ما تزال صامتة تستمع إليّ بصبر.. لتقاطعني فجأة وهي تقول بنظرة متهكمة:

- هل تريد الطلاق؟!.

فاجأتني صراحتها وطريقتها الباردة.. لكني قررت الاستمرار في شرح وجهة نظري بدلا من الإشارة بصورة مباشرة إلى كلمة (الطلاق) التي بدت فظّة ثقيلة.. فقالت مقاطعة للمرة الثانية وبصرامة مرعبة:

- أنت مُلكي وحدي.. ولن تتركني أبدا.

قلت مستنكرا:

- ملكك؟!.. كيف أكون ملكا لأحد؟!.. لا أحد يملكني في هذا العالم.

نهضَت من فراشها.. ثم أخذت كرسيا لتقف عليه وتمد يدها إلى فوق الدولاب وكأنها تخفي شيئا هناك.. إنه مُجَسَّم العروسين الذي كان على كعكة حفل الزفاف.. حتى أنني فوجئت أنها ما تزال تحتفظ به.. و.. أمام نظرات استغرابي وعدم فهمي لما يجري.. ذهبَت إلى أحد الأدراج لتخرج منه ولاعة.. وأشعلتها على المُجَسَّم.. تحديدا على ذراع العريس الممتدة الممسكة بيد العروسة.. فشعرت باحتراق شديد في ذراعي جعلني أنتفض ألما.. ووجدتها أيضا تتأوه متألمة لترمي الولاعة بعيدا وهي تقول:

- كما قلت.. أنت مُلكي وحدي.. أستطيع إلحاق الضرر بك حتى لو كنت في أبعد مكان في العالم.. فهذا المُجَسَّم يربطنا ببعض إلى الأبد.. وعليك أن تختار.. إما أن نعيش معا.. أو نموت معا.

في البداية لم أفهم.. لكن ابتسامتها الشيطانية وقوة الموقف.. جعلاني أقف أمامها مبهوتا وقد بدأت الصورة

تتضح.. لتقوم بتصرف آخر كي تثبت صحة كلامها.. إذ ضغطت على ذراع العريس في المُجَسَّم بقوة.. فصرَخْت متألما.. وصرَخَت هي بالمثل.. لأقول بصوت مبحوح:

- يا إلهي.. كيف تفعلين ذلك؟!.

ردت بضحكة شيطانية:

- لا شك أنك لاحظت أنني أتألم معك.. لأن المُجَسَّم مصنوع كوحدة واحدة.. وأي محاولة لفصل العروسين ستتسبب لنا بإصابات عديدة قد تصل إلى موتنا معا.. بهذه الطريقة لن أفقدك أبدا.

سألتها وأنا لم أتجاوز الصدمة:

- لم تجيبي على سؤالي.. كيف تفعلين ذلك؟!.

ردت وهي تنظر إلى عيني مباشرة:

- إنه (السحر الأسود)(12).. أو الـ(فودو)(13) تحديدا.. لقد تعلمته منذ سنتين على يد ساحر في إحدى القرى الهندية.. وقد كنت وقتها يائسة أشعر بوحدة قاتلة.. وبحاجة ماسة إلى شريك حياة لا أخشى غدره أو طمعه في ثروتي.. فوجدت أن الضمان الوحيد هو استغلال السحر للزواج من شاب وسيم أغريه بمالي.. ويصبح بعدها مُلكي إلى الأبد.

ظللت أنظر إليها مبهوتا وهي تقول بضحكة صفراء:

- هذا الشاب هو أنت.. ستعيش معي إلى يوم وفاتي.. ولو فكرت بإتلاف المُجَسَّم بأي صورة.. سنموت معا.

قلت بصوت مرتجف محاولا أن أكذِّب ما أراه وأسمعه:

- هذا مستحيل.. هناك خدعة ما.. وإلا كان بإمكانك استخدام السحر كي تعودي إلى شبابك مثلا.. أو تملئي قلبي بحبك.

ردت ضاحكة بسخرية:

- أنت أحمق كحال الجميع.. نحن لا نتحدث هنا عن مصباح

(علاء الدين) الخيالي.. هناك حدود للسحر لا يعرفها سوى السّحَرة أنفسهم.. فليس كل ما نتمناه نستطيع تحقيقه.

ما أسمعه منها حقيقي مهما حاول عقلي إنكاره.. إنها واثقة جدا من كلامها.. وقد برهنت على ذلك مرتين وسببت لي الألم فعليا.. إن أسناني تصطك.. أحاول السيطرة عليها لكني أعجز عن ذلك.. أحاول أن أتحدث لكن الكلمات تخرج مضطربة غير واضحة.. لتقول زوجتي اللعينة وهي ترمقني بسخرية:

- والآن بعد أن فهمت كل شيء.. عليك أن تحسن معاملتي وتمتثل لأوامري.. وإلا سيكون عقابك شديدا.

قلت لاهثا محاولا أن أفهم:

- لكنك تؤذين نفسك أيضا حين تؤذيني.. لماذا لا تصنعين مُجَّسَما خاصا بي مثلا؟!.

ردت بثقة:

- هذا ما يجهله عامة الناس عن السحر الأسود.. إنه يرتبط بمن يمارسه.. فيستحيل أن أضر أحدا ما لم أضر نفسي معه للأسف.. ولهذا السبب تحديدا لا تشاهد للسحر الأسود استخداما واسعا.

سكتُ طويلا وأنا أنظر إليها بانهيار.. لتقول محذرة وهي تشير إليّ بإصبعها:

- ويجب أن تعلم أنك حتى لو سرقت المُجَسَّم وأخفيته عني.. أو هربت به.. فسأتمكن دوما من صنع مُجَسَّم آخر.. إنني أمتلك شعيرات كثيرة أخذتها من رأسك من دون علمك وأخفيتها في مكان لا يمكنك الوصول إليه.. هذا كل ما أحتاجه كي أصنع مُجَسَّما آخر ليترك السحر تأثيره عليك أينما كنت.. وليس بالضرورة أن يكون المُجَسَّم الجديد تحفة فنية مثل الحالي.. مجرد تمثال بسيط بدائي سيَفي بالغرض.. أما لو فكرت بقتلي

بوسيلة لا تثير الشبهات كما يقولون.. فتذكّر أن صحتي سليمة ولا أعاني أية أمراض كي أموت بطريقة مفاجئة.. ولا تنسَ أنه من السهل جدا إثارة الشبهات حولك كونك متزوجا من سيدة تفوقك سنا بسنوات طويلة.. دعك من أن لدي محاميا متمرسا يستطيع توريطك بمشاكل كثيرة لو حدث لي أي مكروه.. ولن ترث من أموالي شيئا إلا لو أثبت براءتك من موتي.. هذا لو أثبت براءتك أصلا.

انتهت من كلامها وسط ذهولي وصمتي.. وتركتْني لتذهب وتجلس في غرفة المعيشة.. أما أنا فقد تراجعت والتصقت بالجدار مبهوتا مصدوما أنظر إلى ذلك المُجَسَّم الذي تركته زوجتي باستهتار على فراشنا.. لأتجه ناحيته وأمسك به بيد مرتجفة.. أحاول لا شعوريا أن أفصل جبهتي العروسين عن بعضهما.. لكني شعرت بآلام رهيبة في جبهتي.. بل وسمعت صراخ زوجتي في الصالة وهي تخبرني أنني آلمتها.. نعم.. لا مزاح في الأمر.. إن ما أعيشه حقيقي تماما.. يا إلهي.. لقد ظللت أردد منذ مدة أن مجتمعاتنا تسير نحو الهاوية.. ويبدو أننا وصلنا.. فهل يعقل أن هناك من يمارس السحر في مجتمع مدني في القرن الـ 21؟!.. هل يعقل أنني تزوجت من عجوز تمارس السحر؟!.. إن هذه اللعينة تملك حياتي بأكملها.. وبإمكانها أن تقتلني في أي لحظة.

وهكذا وجدت نفسي مستسلما راضخا طوال الأيام التالية.. حيث بدأت الصورة الحقيقية لزوجتي تظهر بعد أن تأكدَت أنها تسيطر على حياتي.. إذ طلبَت مني أن أكشف لها موقعي دوما من خلال هاتفي الذكي لكي ترصد تحركاتي وتتأكد أنني لا أكذب عليها حين أخرج من البيت.. وأن علي أن أعود إليها حالما أنتهي من أعمالي.. وأن أنسى كل صداقاتي.. وإلا فسيكون عقابي شديدا.. وكأنني مراهق يراقب والده تحركاته كي يجنبه أصدقاء السوء.

ولا أنكر أنني جربت ذات مرة أن أذهب للقاء أحد الأصدقاء

في مجمع تجاري شهير.. فشعرت بألم حاد في كتفي ثم في أماكن متفرقة من جسدي.. لأعتذر له وأعود أدراجي إلى البيت.. عالما أن زوجتي كشفت أمري وفعلت شيئا بالمُجَسَّم.. حتى حين أغلقت خاصية تحديد الموقع في هاتفي ذات يوم.. وجدت الرد بعدها بفترة قصيرة من خلال عقاب مماثل.. إنها تراقبني بالكامل.. وتكاد تخنقني بعد أن فقدت حريتي وأصبحت تحت إمرتها.. فلا مانع عندها أن تتألم معي طالما تحافظ على وجودي في حياتها.

وقد تخللت الأيام التالية بعض الأحداث المؤسفة.. منها عندما صرخت في وجهها يائسا ذات مرة.. لتقوم -وبرد فعل انتقامي- بحرق ذراع العريس في المُجَسَّم.. فرحنا نصرخ ونتألم معا.. آملا أن تتوقف من تلقاء نفسها بعد أن ينفد صبرها من قوة الألم.. لكنها ظلت صامدة رغم سنها.. إلى أن رجوتها في النهاية أن تتوقف.. ولم ينته الأمر إلا بعد ظهور علامات الحرق على ذراعينا.. حيث حذرتني ألا أصرخ في وجهها أبدا وإلا سيكون عقابي أسوأ بكثير.. لتتركني متسائلا كيف يمكن لعجوز كهذه أن تملك قدرة تحمل تفوق قدرتي بكثير؟!.. لا شك أن هناك تأثيرات نفسية وعقلية و-وربما جسدية- على من يمارس السحر.

لقد فكرت كثيرا بقتل زوجتي.. لكني ظللت أتراجع كل مرة خوفا من كشف أمري.. أما اللجوء إلى الشرطة فهو المستحيل بعينه.. فلا يمكن لأحد أن يصدقني لو أخبرته بحقيقة ما يجري.. ماذا عن أخذ المُجَسَّم إلى مركز الشرطة بنفسي ومن ثم تعريضه للأذى أمامهم ليروا مفعوله؟!.. فكرت في ذلك أيضا.. لكن الأذى سيطول زوجتي وستعلم أنني أنوي فعل شيء ضدها وقد تنتقم مني شر انتقام.. كما ترون.. لقد فكرت في كل الحلول.. ووجدتها كلها غير ممكنة وتسبب لي تهديدا مباشرا طالما ارتبط مصيري بزوجتي.

كيف تغير الأمر؟!.. كيف تمكنت من إنقاذ نفسي؟!.. حدث

هذا بعد أكثر من شهرين كاملين من البؤس.. وبعد أن توسلت إلى زوجتي كثيرا -وبلا جدوى- كي تتركني أرحل في حال سبيلي.. مما جعلني أفكر طوال الوقت بمخرج من هذه الورطة.. فطرأت في ذهني فكرة غريبة جدا وبسيطة للغاية في نفس الوقت.. استلهمتها من لقطة لفيلم أجنبي كان يُعرض على إحدى قنوات الأفلام الشهيرة.. حيث يقوم البطل بتصرف بسيط لم يكن حتى جزءا مهما من أحداث الفيلم.. عموما.. لست واثقا أنها فكرة فعالة أصلا إلا لو قمت بتجربتها بنفسي.

في اليوم التالي.. استأذنت من زوجتي للخروج وشراء بعض الاحتياجات كوني أعيش تحت إمرتها وعليّ أن أحصل على موافقتها عند الإقدام على أي تصرف.. فوافقَت وهي ترمقني بنظرة نارية محذرة ألا أتأخر.. لأخرج مسرعا إلى ذلك المكان كي أشتري شيئا لن يخطر ببال أحد.. ثم عدت بعد حوالي ساعة محملا بالأكياس الثقيلة.

سألتني عما أحمله معي.. فأخبرتها بابتسامة مصطنعة أن عليها الانتظار قليلا لأنني سأحضر لها مفاجأة في غرفة النوم.. وأنني سأكون خاضعا لها برضاي -وليس رغما عني- ابتداء من اليوم.. وسأسعى لتكون حياتنا الزوجية مبنية على الحب وليس الخوف.. حسنا.. لا أعرف إن كانت تصدقني أم لا ولا يهمني ذلك.. لأنها لن تتوقع أبدا ما سأفعله.

سرت مسرعا إلى غرفة النوم وأقفلت الباب خلفي.. وبحثت بلهفة عن المُجَسَّم.. لأجده قابعا في مكانه.. مُجَسَّم الزفاف الذي يفترض أن يمثل السعادة.. لكنه بات كابوسا يمثل لي الموت ذاته.. المهم أنني بدأت بتنفيذ خطتي.. ولم يستغرق ذلك سوى بضع دقائق.. لأجلس على السرير حال انتهائي من كل شيء منتظرا ما سيحدث.

السرير يهتز بفعل جسدي الذي يرتجف توترا.. منظري غريب ومضحك للغاية وغير مفهوم لمن يراني.. ثم.. أسمع زوجتي

تحاول فتح باب الغرفة وهي تصرخ.. وتسألني عما أفعله في المُجَسَّم.. لكني لم أرد.. بل ظللت صامتا وأنا أسمع صوت قبضتها وهي تطرق الباب.. وتطرق.. وتطرق.. إلى أن خارت قواها وصمتت تماما.. هل نجحْت؟!.. أم أنها تخدعني؟!.. لا أعلم.. سأنتظر قرابة ربع الساعة لأتأكد.

مر الوقت بطيئا للغاية وأنا أنظر إلى ساعتي بقلق شديد وجسدي امتلأ بالعرق.. لأنهض أخيرا وأفتح باب غرفة النوم.. و.. تنفست الصعداء عندما وجدت زوجتي اللعينة وقد فارقت الحياة.. هذا رائع.. لقد نجوت وأنقذت نفسي من أكبر ورطة في حياتي.. وبفكرة بسيطة طريفة لا تخطر ببال أحد أبدا.

فحين خرجْتُ من البيت.. ذهبْتُ إلى أحد الأسواق لشراء غطاء زجاجي كالذي نضعه حول الكعك أو أي مادة غذائية لنمنع عنها الحشرات.. ثم اشتريت أنبوبة أكسجين مع القناع للتنفس تحت الماء.. وعند عودتي.. دخلت غرفة النوم.. وقمت بوضع الغطاء الزجاجي على المُجَسَّم.. مما سيحجب الهواء عني وعن زوجتي أيضا.. وهذا ما عرّضها للاختناق والموت بعد لحظات.

أما أنا فأنقذتني أنبوبة الأكسجين التي اشتريتها وارتديتها أثناء تنفيذي لخطتي.. لهذا بدا مظهري مضحكا لمن يراني جالسا على السرير وكأنني على وشك القفز والغوص في البحر.. لكن خطتي نجحت وهذا المهم.. فقد حاولت زوجتي السيطرة علي بالسحر.. ونجوت أنا منها بالعقل وحده.

اتصلت بالشرطة مباشرة لأبلغهم بأمر الوفاة.. وعبثا حاول محامي زوجتي الدفع بوجود شبهة جنائية في القضية.. لكن كل التحقيقات أكدت أن حالة الوفاة طبيعية نتيجة التعرض لاختناق قد يتعلق بفشل في التنفس بسبب عامل السن.. لأخرج رابحا من مغامرتي بعد أن ورثت جزءا كبيرا من أموال زوجتي.. شاعرا بالفخر الشديد لأنني أنقذت نفسي بنفسي.. أما المُجَسَّم.. فقد وضعتُه في قفص حديدي صنعته خصيصا من أجل ذلك.. وتركته فوق أحد الرفوف في غرفة نومي..

بعد أن تبين أنه ما زال يحتفظ بقوته وسحره للأسف.. أي ما زال بإمكان أي شخص أن يضرني كما يشاء لو وقع المُجَسَّم هذا بيده.. هذا سرّي الخاص الذي لا يعرفه أحد عني.. ولهذا تحديدا.. لا يدخل أحد غرفة نومي سواي.. غير عالم إن كنت سأظل أرملا طوال العمر.. أو سأتزوج يوما.. ولو فكرت بالزواج.. علي أن أفكر بطريقة أحفظ فيها هذا السر عن زوجتي الجديدة.. وأن أخفي المُجَسَّم عن عينيها لأنني لا أثق بأحد أبدا.

هذه هي قصتي باختصار.. البعض يظنها سخيفة.. والبعض سيراني كاذبا أتحدث بما هو غير معقول.. في حين قد يراها آخرون مسلية وتحوي لمسة ذكاء لكن يستحيل أن تكون حقيقية.. ولهؤلاء أقول.. ما هي حدود السحر؟!.. هل تعرفون؟!.. أتحداكم أن تجيبوا.

شخصية مريبة

كانت لحظة جميلة حين وافقْت على الرجل الذي تقدم لخطبتي.. متيَقّنة أنه الزوج الذي تمنيته طوال حياتي.. فهو يشغل مركزا مرموقا في إحدى الشركات الضخمة ويسافر كثيرا إلى الدول الأوروبية لإنجاز أعماله.. كما أنه مكافح.. يحب عمله كثيرا ويقضي أوقاتا طويلة في مكتبه.. وأوقاتا طويلة كذلك في الأندية الرياضية ليحافظ على لياقته ومظهره العام.. نعم.. هكذا الزوج الذي أريده.. وليس شخصا يمسك بقيثارة ويعزف لي ألحان الحب كما تتخيل بعض الفتيات غير الناضجات.. خاصة وأنني لست مثل أي فتاة.. فأنا جميلة جدا ولا أقولها غرورا.. أمارس العديد من الرياضات التي أعتبرها جزءا من حياتي.. مطّلعة وقارئة نهمة.. على قدر كبير من الاستقلال المادي.. وأجيد اللغة الانجليزية أكثر من العربية بسبب دراستي في المدارس الخاصة.. إلى جانب السنوات الطويلة التي عشتها في (بريطانيا).

وقد كنت أرى هذا الزواج بمثابة المكافأة بعد أن وصل عمري إلى منتصف الثلاثينيات حيث انشغَلْت طوال السنوات السابقة ببناء نفسي.. إلى درجة أن العلاقات الاجتماعية انعدمَت تقريبا من حياتي.. ولم يعد لي في هذا العالم سوى أحد الأقارب الذي لا أراه كثيرا أصلا.. على أن يكون هو الحاضر والمسؤول عني في يوم عقد القران كما هو معتاد في مجتمعاتنا.

لكن ما حدث قبل موعد عقد القران بفترة قصيرة أربك كل حساباتي للأسف.. عندما طلبت من الخادمة أن تذهب إلى السوق المركزي القريب لشراء بعض الحاجيات البسيطة.. لأظل لوحدي غارقة في خواطري أفكر بالمرحلة القادمة من حياتي.. وقد كنت خلالها أنظر بشرود عبر نافذة غرفة المعيشة.. لألمح الخادمة وهي تخرج من بوابة المجمع السكني الرئيسية.. وأرى ذلك الموقف الغريب!!.

إذ اقتربَت منها سيدة كبيرة في السن كما هو واضح من طريقة سيرها وانحناء ظهرها.. ترتدي العباءة والنقاب.. لتقول لها شيئا ما.. وتمنحها ورقة صغيرة كما بدت لي من تلك المسافة.. ثم استدارت السيدة وعادت أدراجها بخطوات حاولَت أن تجعلها سريعة.. لتضع الخادمة الورقة في جيبها وتكمل طريقها إلى السوق المركزي.. مما أثار فضولي كثيرا.

عادت الخادمة بعد أقل من ساعة وهي تحمل الحاجيات التي طلبتها منها.. فاستوقَفْتها مباشرة لأسألها عن هوية السيدة وفحوى الورقة.. ويبدو أنني فاجأتها بعِلمي بما حدث.. إذ تسمرت في مكانها للحظة.. ثم تحدثَت بكلمات سريعة مرتبكة وادعت أنها لا تعرف تلك السيدة ولم تر ملامحها أصلا.. قالتها وهي تسلمني الورقة المطوية بإحكام وكأنها تخلي مسؤوليتها.

فضضت الورقة بفضول لأجد تلك العبارة:

((The Person you will marry is a professional killer))

ولمن لا يقرأ الانجليزية.. فإن العبارة تقول بوضوح:

((الشخص الذي ستتزوجينه هو قاتل محترف))

أثارت العبارة توتري بكل تأكيد.. وجعلتني أسأل الخادمة بذعر إن كانت السيدة قد قالت لها أي شيء آخر.. فردت بسرعة وقد انتقل خوفي إليها:

- لا.. لقد أرادت مني تسليمك الورقة فقط.. ماذا تحوي بالضبط؟!.

إنها من الجالية الإندونسية ولا تجيد اللغة الانجليزية.. فلا أظنها فهمَت ما تحويه الورقة -لو كانت قرأَتها من دون علمي- لكني تجاهلت سؤالها وأدرت لها ظهري.. ويبدو أن تصرفي هذا ذكّرها أن ليس من حقها أصلا طرح هذا السؤال.. فاستدارت بدورها متجهة إلى غرفتها.. وظللت أنا في حالة

صدمة شلّت تفكيري تماما.. يا إلهي.. هل يُعقل أن خطيبي قاتل؟!.. هل يعقل أن أمرا كهذا يفوتني؟!.. ثم كيف يكون قاتل (محترف)؟!.. فكلمة (قاتل) وحدها كافية لتخيفني.. ومن هي السيدة التي جاءت بهذه الورقة؟!.. ولو كانت تعرف شيئا عن خطيبي فلماذا لم تذهب إلى الشرطة مباشرة؟!.

أعلم أن هناك احتمالات أخرى قد تطرأ ببال البعض.. أن هناك فتاة تحسدني على حسن اختياري وتريد تخريب هذا الزواج قبل أن يتم مثلا.. أو أنها فتاة تحب خطيبي وتريده لها.. فجميع الاحتمالات واردة.. لكن أيها الأصح؟!.. ولا أظن أن مواجهة خطيبي ستجيب على تساؤلاتي.. لأن ورقة كهذه لن تجعله يعترف لو كان قاتلا محترفا بالفعل.. علي الانتظار والتفكير.. وبكل تأكيد لن أقدم على خطوة الزواج قبل أن أفهم ما يحدث وأحسم الأمر.

في اليوم التالي.. اتصلت بخطيبي.. وسببت له صدمة حين أخبرته أنني أرغب بتأجيل موعد عقد القران.. لأنني لست واثقة حتى الآن من قرار الزواج.. وأشعر أنني بحاجة إلى المزيد من الوقت للتفكير.. كل هذا من دون ذكر أي أسباب مقنعة.

أثار كلامي استغرابه وتساءل غاضبا عن سبب تراجعي.. لكني رفضت التحدث عن الأسباب وسط إلحاحه الشديد ومحاولاته لفهم التغيير الذي طرأ علي فجأة.. ولأول مرة.. شعرت أنه ليس بالرجل الذي كنت أتصوره.. وأن هناك أسرارا كثيرة بجعبته يتوجب كشفها.. وهذا ما جعلني أطرح عليه بعض الأسئلة عن علاقاته السابقة وأسباب عدم زواجه إلى الآن.. فكان يجيب بنفاد صبر رغم أنه سبق وأخبرني بكل شيء.. إذ كنت أنتظر منه أن يمنحني جوابا مختلفا هنا أو هناك كي أكشف كذبه.. لكن إجاباته لم تتغير.. مما جعلني أستمر معه في فترة الخطوبة لأيام أخرى علّني أكتشف شيئا يساعدني على اتخاذ قراري النهائي.. كما اتصلت بصديق يشغل منصبا في وزارة الداخلية لأسأله عن السجل الجنائي لخطيبي.. حيث أكد لي بعد البحث

أن الرجل لا غبار عليه أبدا.

بعد بضعة أيام.. فاجأني خطيبي بزيارة في شقتي.. فجلسنا في غرفة المعيشة نتحدث حول مواضيع شتى وقد بدت علاقتنا متوترة بعد تأجيلي غير الواضح لعقد القران ورفضي ذكر الأسباب.. لتسوء الأمر أكثر عندما طلبت منه أن يريني آخر صورة التقطتها معه.. ففي البداية أخذ طلبي هذا بحسن نية.. وقام بفتح هاتفه بواسطة بصمة الوجه.. لأمد يدي وأخطف منه الهاتف بسرعة وأنا أخبره صراحة أنني أريد البحث في حساباته على وسائل التواصل الاجتماعي للتأكد من سلوكياته!!.. فاستشاط غضبا أمام تصرفي الصبياني وقال غاضبا:

- أنا أفعل كل شيء لأرضيك.. لكن لن أسمح لك بالعبث في حياتي والتدخل فيها كما تشائين وبهذه الطريقة السخيفة.. لا يمكن أن تقوم الحياة الزوجية على علاقة تفتقر إلى الثقة.

لم ألتفت إليه.. وإنما نهضت من مكاني مسرعة محاولة الهرب إلى غرفتي كي أقفل الباب على نفسي وأبحث في هاتفه من دون مضايقة منه.. إلا أنه نهض بسرعة ووقف أمامي معترضا طريقي.. لندخل في اشتباك طفولي.. يدي متشبثة بهاتفه وهو يحاول سحبه مني.. لكن.. صوت جرس الباب فاجأني وجعلني أتوقف عن هذا العبث.. لأن أحدا -غير خطيبي- لم يزرني منذ مدة طويلة.

اتجهت لأفتح الباب من دون أن أسأل عن هوية الطارق.. فقد كنت ألهث تعبا جراء اشتباكي مع خطيبي.. لأصطدم بذلك الشخص الذي تجاوزني ودخل مباشرة وهو يقول بصرامة:

- كيف حالك يا شقيقتي؟!.

نظر إلينا خطيبي بعينين متسعتين.. ليقول مستغربا:

- شقيقك؟!.. لقد أخبرتني سابقا أنك وحيدة والديك ولا أشقاء لك!!.

غمغمتُ بكلمات اعتذار خجولة غير واضحة.. أما شقيقي فقد احتقن وجهه كثيرا.. ليقول موجّها كلامه إلى خطيبي:

- إن شقيقتي لم تخبرك عني لأنها لا تريدني أن أفضحها.

أعرف أن عبارته غريبة لو توقفنا عندها للحظة.. هل يعقل أن هناك شقيقا يفضح شقيقته؟!.. ويفضحها بماذا بالضبط؟!.. ليكمل أمام نظرات خطيبي المتسائلة:

- لقد حاولْت العثور عليك بعد أن عرفت من أحد الأقارب بأمر زواجك من شقيقتي.. وهذا ما جعلني أراقبها على أمل أن ألتقي بك وأتمكن من تحذيرك.. لكنها شديدة الدهاء.. وقد نجَحَت إلى درجة كبيرة في عزلي ومنعي من الوصول إليك.. مما جعلني أتنكر بارتداء العباءة والنقاب.. لأمثل دور عجوز تعاني عرجا واضحا محاولا خداع شقيقتي لو رأتني.. وجلست أنتظر قدومك للاستفراد بك كي أحذرك.. لكني لم أصادفك أبدا للأسف.

سأله خطيبي بحدة:

- أنا لم أفهم شيئا.. تريد تحذيري من ماذا بالضبط؟!.

تجاهل شقيقي السؤال ليكمل:

- هذا ما جعلني أقرر الاستعانة بالخادمة حين رأيتها تخرج في ذلك اليوم.. إذ منحْتها ورقة كتبْت لك فيها رسالة هامة للغاية وأوصيتها بإيصالها إليك وعدم ذِكر ذلك لشقيقتي.. وقد كتبت رسالتي لك باللغة الانجليزية كوني -كحال شقيقتي- درست في مدارس أجنبية واعتدت الكتابة باللغة الانجليزية التي خمّنْت أنك تجيدها عندما أخبرني قريبنا أنه لا يعرف عنك سوى ما ذكَرَتْه له شقيقتي بأنك كثير السفر إلى الدول الأوروبية بحكم عملك.

صرخ خطيبي قائلا بعصبية وهو ينقل نظراته بيني وبين شقيقي:

- ألا يشرح لي أحدكما بوضوح ما يدور هنا؟!.

رد شقيقي وهو ينظر إليّ ببغض:

- لقد كتبْت لك رسالة قصيرة وبلغة انجليزية واضحة أخبرك خلالها أنك على وشك الزواج من قاتل محترف.. أو.. قاتلة محترفة.. وأوصيت الخادمة أن تمنحك الورقة.. لكنها أخبرتني بعد ذلك أنها اضطرت لتسليم الورقة إلى شقيقتي بعد أن رأتنا من النافذة.. فقد كنت أريد تحذيرك.

نظر إليه خطيبي مصدوما غير مصدق.. أما أنا فقد شعرت بغباء شديد.. كيف فاتني أمر بسيط كهذا؟!.. لقد كانت الرسالة مكتوبة باللغة الانجليزية والتي تستخدم نفس الأفعال والأوصاف للمذكر والمؤنث من دون تمييز كما نعلم جميعا.. فعندما قرأت العبارة:

((The Person you will marry is a professional killer))

ظننتها تتحدث عن خطيبي.. ولم أظن للحظة أنها عني أنا.. خاصة حين كذبت علي الخادمة وأخبرتني أن الورقة لي!!.. نعم.. أنا القاتلة المحترفة بالفعل.. لقد تدرّبْت جيدا وتمرست على القتل طوال السنوات التي قضيتها في (بريطانيا).. حتى بت أمتلك أعصابا حديدية.. إنه السر الذي أخفيه عن الجميع ولم يكشفه سوى شقيقي.

ساد المكان صمت مريب بضع دقائق.. أما أنا.. فاكتفيت بالنظر إلى شقيقي ببرود شديد ينم عن شخصيتي القوية والهادئة.. قبل أن يقول خطيبي بصوت يشوبه الشك:

- لماذا لا تبلغ الشرطة عنها لو كانت شقيقتك كما تقول بالفعل؟!.. ولماذا تكتفي بتحذيري فقط؟!.

رد بألم:

- للأسف لا أملك أي دليل على كلامي لإدانتها.

سأله خطيبي مستغربا أمام صمتي التام:

- كيف كشفت أمرها إذا؟!.

رد مقهورا:

- منذ حوالي 10 سنوات.. لم أكن قد أكملت الـ 18 من العمر بعد.. كنت أسكن مع شقيقتي في نفس الشقة.. فكان من العسير ألا أنتبه إلى انعزالها ومحادثاتها الهاتفية السرية.. لقد كانت تتصرف بغموض شديد.. ولم يكن الأمر يوحي أنها على علاقة بشاب مثلا.. مما جعلني أراقبها من دون أن تشعر.. لأسمعها تتحدث عن تصفية فلان وعلان مقابل مبالغ ضخمة.. في البداية لم أصدق ما أسمعه.. وظننتها تمزح.. لكنني لم أصارحها بشيء واكتفيت بالاستمرار بمراقبتها.. لأسمعها تردد كلاما شبيها في مكالمات هاتفية لاحقة.. إلى أن تيَقّنْت أنها قاتلة متمرسة ترتكب جرائم القتل بكل احترافية.

سكت خطيبي للحظة مفكرا.. وكأنه يبحث عن ثغرة في كلام شقيقي.. ثم سأله:

- لو كان كلامك صحيحا.. لماذا لم تتبع شقيقتك بسيارتك لتصل إليّ؟!.. لقد كانت تقابلني كثيرا.

رد شقيقي بحسرة:

- لقد حاولْت أكثر من مرة.. لكنها ظلت تكشف أمر ملاحقتي باستمرار وتجعلني أفقد أثرها في الشارع.. إنها ذكية للغاية.. بل داهية والحق يقال.. ولا أستبعد أنها اختارتك تحديدا لأنك كثير السفر.. مما سيمنحها مساحة كبيرة للعمل بحُرّية في عالمها السفلي.. فلَن تكون زوجا متربصا لا يفارقها أبدا.. أعتقد أنها أرادت الزواج للحصول على غطاء أكبر أمام القانون.. إذ سيراها الجميع كأي سيدة متزوجة لا تثير الشبهات.

كنت أستمع إلى كل هذا وأنا صامتة هادئة غارقة في خواطري مستذكرة كيف تغيرت حياتي حين كنت في الـ 22 من العمر حسبما أذكر.. عندما تعرض لي شاب في أحد الشوارع

من أجل معاكستي.. فتجاهلْته ولم ألتفت إليه.. لكنه أشار إليّ بيده وبحركة قذرة ألحقها بشتيمة بذيئة.. مما جعلني أستشيط غضبا وأفقد السيطرة على أعصابي وأنا أشير له بتحدٍ أن يتبعني بسيارته.

وبغرور الشباب المستهتر.. تبعني بالفعل إلى أن أدخلته إلى حي داخلي في منطقة سكنية حديثة لم تكتمل بعد.. وهناك.. نزلت من سيارتي.. لينزل هو أيضا بكل غرور واستهتار.. ولأنني أحمل الحزام الأسود في الفنون القتالية.. كان قتالي معه غير متكافئ بالنسبة له.. فهرع إلى سيارته كي يجلب هراوة غليظة وهو يستشيط غضبا من كيفية تعرضه لكل هذا الضرب على يد فتاة.. لكني تمكنت من التغلب عليه رغم ذلك.. و.. قتلته بضربة قوية على رقبته.. لتسقط منه الهراوة ويخر ميتا.

كانت هذه المرة الأولى التي أتشاجر فيها مع أحدهم وأقتله دفاعا عن نفسي.. ولحسن الحظ لم يكشف أحد أمري.. مما منحني ثقة كبيرة بقوتي وجرأتي.. لتأتي حادثة ثانية بعد شهور.. عندما اتصلت بي صديقة مقربة جدا تعرضت للعنف الجسدي على يد زوجها.. وراحت تصرخ منهارة وهي تطلب مني أن أنقذها بشكل أو بآخر.. بعد أن تخلّى عنها والدها وهو يؤكد لها تلك الفكرة السخيفة أن المرأة لا تخرج من بيت زوجها إلا لقبرها.. مهما كانت مشاكلها معه.. فذهبْت إلى شقتها لألتقي بزوجها.. وهناك ضربته بقسوة مفرغة كل حقدي بعد أن رأيت الكدمات واضحة على وجه صديقتي.. الطريف أن الوغد لم يجرؤ على تقديم أي شكوى ضدي خجلا من فضح نفسه كون فتاة واحدة فعلت به كل هذا.

ثم تكرر الأمر وساعدْت قريبة لصديقتي هذه كانت قد تعرضت للعنف على يد شقيقها.. لكني بدأت أخشى أن يشكوني أحدهم إلى الشرطة يوما ما.. فتطورت مساعداتي وبدأت أقوم بعمليات كهذه مرتدية غطاء للوجه كي أخفي هويتي.. حتى يظن من يراني أنني رجل ولست فتاة.. ليأتي

بعدها التغيير الجذري حين تعرفت بشاب ثري وبدأت بيننا علاقة عاطفية استمرت فترة قصيرة.. أخبرني خلالها عن تاجر منافس له يكاد أن يدمر حياته بأخذ كل المناقصات منه بسبب الرشاوي التي يدفعها للمسؤولين.. فاقترحت عليه أن أتدخل مقابل مبلغا كبيرا من المال.. ولم يكن عسيرا أن أقنعه بقدراتي بعد أن شاهد في هاتفي لقطات كثيرة لي أمارس فيها الفنون القتالية بكل احترافية.. لأقوم بمهمتي على أكمل وجه وأبرح ذلك التاجر ضربا.. فأدركت أنني أصنع لنفسي مستقبلا كبيرا بهذا العمل من خلال المبالغ الكبيرة التي استلمتها.. أفضل من أي وظيفة.

فبدأت أطوّر من قدراتي أكثر وأكثر.. إذ لم يكن من العسير أن أسافر إلى (بريطانيا) وأتعرف على أحدهم في العالم السفلي.. حيث تدربت على القتل بالمسدس وبالأسلحة البيضاء.. ولم يكشف أحد أمري سوى شقيقي هذا الذي ابتعد عن حياتي منذ ذلك الحين.. وقد فكر كثيرا أن يبلغ الشرطة كما أخبرني بنفسه.. لكنه -وكما قال بنفسه أيضا- لا يملك أي أدلة ضدي.. دعكم من أنني الآن أكثر حرصا ولا أدير (أعمالي) هاتفيا كما كنت أفعل في الماضي.. بل أتخذ إجراءات احترازية كثيرة كي لا أقع بيد الشرطة.

أعلم أن فكرة وجود قاتل محترف في مجتمعاتنا غريبة بحد ذاتها.. فما بالكم بوجود (قاتلة محترفة)؟!.. إنني الوحيدة التي تمتهن مهنة كهذه.. لهذا استعان بي الكثيرون من علية القوم.. حيث حققت لهم مآربهم وقتلت أعداء لهم بأجور ضخمة أطلبها منهم ولا يترددون بدفعها بسخاء.. لأنهم يدركون مهارتي وتنفيذي الدقيق لعملي بطريقة لا تثير الشبهات.

أخرجني خطيبي من خواطري هذه التي دارت في ذهني سريعا.. ليقول مذهولا:

- كل تصرفاتك توحي أن شقيقك على حق.. إنك حتى لم

تدافعي عن نفسك.. وأنا لا أرى أي سبب كي يكذب.. دعك من أنك أنت التي كذبْتِ حين أخبرتني أنك وحيدة والديك المتوفيين.

لم أرد أيضا.. بل نظرت إلى الفراغ ببرود.. ويبدو أن خطيبي فهم نظراتي وسكوتي وعدم محاولتي للدفاع عن نفسي أمام هذه الاتهامات.. ليطأطئ برأسه وهو يقول لشقيقي بكلمات آسفة:

- شكرا لأنك أنقذتني منها.. شكرا لأنك وقفت مع الحق ضد شقيقتك.. لا أصدق أنني كنت سأرتبط بقاتلة محترفة.. ولو قلت هذا الكلام لأقرب أصدقائي لما صدقني.

ثم التفت بحزن تجاه الباب ليرحل من شقتي بلا عودة.. في حين قال شقيقي ببغض:

- إنني أراقبك منذ مدة طويلة.. لكني للأسف لا أملك أي شيء ضدك.. فحتى الأموال التي تأخذينها من (عملائك).. يبدو أنك لا تحتفظين بها في البنوك.. وإلا أثار الأمر فضول المسؤولين.. عزائي الوحيد أنني أنقذت هذا الرجل منك.

قالها والتفت أيضا تجاه الباب ليرحل وهو يغمغم بكلمات الحسرة والعار كوني شقيقته.. فاختفى هو وخطيبي من حياتي ولم أرهما منذ تلك الحادثة التي مضى عليها أكثر من سنة.. قررت خلالها أن أقوم بترحيل الخادمة إلى بلدها من باب الحذر.. وتوقفت خلالها أيضا عن ممارسة أعمالي للتأكد أنني لست تحت المراقبة.. على أمل أن أستأنف نشاطي قريبا.. انتظارا لأي مهمة يطلبها مني أحد الأثرياء.. إذ لم أعد أعمل سوى معهم.. فهم يدفعون بسخاء لشخصية مثلي.. شخصية مريبة.

أحداث متسارعة

استيقظت من النوم في وقت متأخر من ذلك اليوم.. وعلى وجهي ابتسامة مملوءة بالرضا.. متذكرة أنني في إجازة حاليا وأمامي أكثر من شهر قبل أن أعود إلى العمل.. فأستشعر الهدوء الذي يطل على الشقة بأكملها ويعبّر عن الهدوء والصفاء النفسي الذي أعيشه الآن.. ففعلت أول ما يفعله من يستيقظ من النوم في هذا الزمن.. إذ ذهبْت إلى غرفة المعيشة حيث جلسْت باسترخاء وأمسكت بالهاتف مباشرة.. لأتفاجأ باتصالات عديدة من (منصور) لم أنتبه لها أثناء نومي كوني جعلت الهاتف في وضعية الصامت.

اتصلت به لأجد هاتفه مغلقا.. فرحت أبحث سريعا في وسائل التواصل الاجتماعي عله ترك رسالة كي أفهم منه سبب اتصالاته المتكررة في أوقات متأخرة جدا.. لتتوتر مشاعري ويتشتت صفائي الذهني عندما عثرت على تلك الرسالة الصوتية:

حبيبتي (تالا)..

اتصلت أكثر من مرة لكن يبدو أنك نائمة.. أنا في مطار (المنامة).. سأركب الطائرة بعد قليل عائدا إلى (الكويت).. إنني أتواصل معك بسبب (سميرة).. لم أشأ إخبارك بأمرها كي لا أثير غيرتك.. إنها فتاة كنت على علاقة بها قبل زواجنا وتركتُها منذ زمن.. لكنها ظلت تلاحقني.. وقد فوجئت بها تتصل بي قبل قليل وتوجه لي تهديدا صريحا بأنني لن أنعم أبدا بحياتي معك وأنها ستقتلك.. إنها فتاة غير مستقرة.. وقد أكد لي طبيب نفسي صديق لي أنها تعاني من (اضطراب الشخصية الحِدّيّة)(14).. وهذا قد يقودها لارتكاب أفعال جنونية.. أنا لا أعرف إن كانت تعرف عنوان شقتنا.. لكني أريدك أن تكوني حذرة في كل الأحوال.. وألا تفتحي الباب لأحد

سواي.. ولا أريدك أيضا أن تخرجي لأي سبب.. وربما من الأفضل أن تتصلي بشقيقتك أو إحدى صديقاتك كي تأتي وتبقى معك لحين وصولي.. لقد أبلغت الشرطة بالأمر.. لكنهم لم يأخذوا كلامي بجدية لأن (سميرة) لا تملك أي سجل إجرامي.. ولا يوجد لدي أي دليل على كلامي هذا.. أرجوك أن تتذكري.. لا تفتحي الباب لأحد لحين عودتي.. أعتذر منك بشدة لأنني لم أبلغك بأمر تلك الفتاة من قبل.. لم أكن أرغب بإثارة غيرتك.. إلا أنني مضطرا لذلك الآن.

أحبك إلى الأبد

(منصور).

كانت الرسالة صادمة.. جعلتني أجلس في مكاني بعض الوقت بأفكار متضاربة منَعَتني من التصرف.. لأسمع بعدها بوقت قصير طرقات قوية على باب الشقة لم ينتظر صاحبها طويلا.. وإنما وضع شيئا في القفل على عجالة.. فأصبت برعب شديد جعلني أركض إلى غرفة النوم بتصرف طفولي لأختبئ خلف الستارة.. إذ لم أملك الوقت للتفكير بأي حلول أخرى.. ولحسن الحظ أن الستارة طويلة وفضفاضة تخفيني تماما عن الأنظار.. المصيبة أن الخوف أنساني هاتفي الذي تركته على المنضدة ولم آخذه معي للاتصال بالشرطة على الأقل.

أسمع صوت أحدهم يلهث بقوة.. فحبست أنفاسي خلف الستارة كي لا ألفت الانتباه.. لا أعرف إن كان هذا رجلا أو امرأة.. أين أنت يا (منصور)؟!.. أرجوك أنقذني.. يجب أن أعثر على طريقة أدافع فيها عن نفسي.. أو على الأقل أهرب.. كيف يا ترى؟!.. ما زلت أسمع صوت اللهاث.. وكأن أحدهم يبحث عن شيء.. أو يبحث عني إن أردنا الدقة.. تجرأت قليلا ونظرت عبر فتحة الستارة.. لا أرى أحدا.. لكني أرى غرفة المعيشة وباب الشقة.. ربما أستطيع الركض إلى الخارج لأهرب من هذه الورطة.

خرجت بتوجس.. قبل أن أطلق ساقي للريح.. لكني فوجئت بـ(منصور) جالسا على الأرض في زاوية الصالة وهو يصرخ وينظر إليّ بحقد:

- (سميرة).. أيتها اللعينة.. لقد قتلت (آية).. قتلت زوجتي.. كيف دخلت هنا؟!.. كيف؟!.

أغاظني حزنه.. فقلت ملتاعة:

- ماذا عني أنا؟!.. ألست حبيبتك الأولى؟!.. ألم نكن نحب بعضنا؟!.

رد بقسوة وعيناه تذرفان الدموع:

- كان هذا قبل أن أكتشف أنك فتاة مضطربة لست طبيعية.

جن جنوني وأنا أراه على الأرض يحتضن جثة زوجته الموجودة في غرفة المعيشة منذ أمس.. ليخبرني باحتقار أنه سيطلب الشرطة.. فهجمت عليه وأنا أصرخ قائلة:

- لقد فعلت كل شيء من أجلك.. قتلت زوجتك فقط لأكون معك.. والآن تريد التخلص مني؟!.

أمسك بيديّ سريعا.. وضرب جبهته في وجهي مفرغا كل غضبه.. ما هذا السائل الذي يتسرب من أنفي إلى فمي.. إنها الدماء.. يبدو أنه كسر أنفي.. و.. ضربة أخرى بجبهته قبل أن أفقد وعيي.

خاتمة

كانت (سميرة) مكبّلة وهي تُساق من قبل الشرطة النسائية.. أما (منصور) فكان يبكي وهو يقول لأحد رجال الشرطة:

- كنت في (المنامة) لمساعدة شقيقتي على الانتقال لمكان سكنها الجديد بعد أن حصلَت على بعثة لاستكمال دراستها الجامعية.. حين تلقيت اتصالا هاتفيا من (سميرة) في وقت متأخر تخبرني أنها علِمت بزواجي من (آية).. وأنها لن تترك أحدا يأخذني منها.. وأكدت لي أنها ستقتل زوجتي بنفسها.. فأرسلت رسالة إلى زوجتي أحذرها.. وقمت بحجز أقرب رحلة للعودة.. لكني وصلت متأخرا.. يبدو أن تلك اللعينة كانت قريبة جدا من شقتي عندما اتصلَتْ بي وهددتني.. فقد طرقَت الباب وفتحت لها (آية) قبل أن يصلها تحذيري.

يقول له رجل الشرطة:

- نعم.. للأسف وصل تحذيرك متأخرا.. فـ(سميرة) هي التي استمعت إلى رسالتك بعد أن قتلَت زوجتك طعنا حتى الموت.. واستخدمت بصمة وجهها للولوج إلى بيانات هاتفها لمعرفة بعض التفاصيل عنها إشباعا لفضولها ربما.. ثم ظلت في الشقة وقضت ليلتها فيها انتظارا لمجيئك.. من دون أن تكترث لوجود جثة زوجتك في غرفة المعيشة.. وقد فوجئَت بك تبكي ألما حال عودتك واكتشافك لما حدث.. فجن جنونها على حزنك واهتمامك بزوجتك وحاولَت مهاجمتك.. كل هذه التصرفات تؤكد حالتها النفسية غير المستقرّة.. لحسن الحظ أنها لم تصبك أنت أيضا بالأذى.

لم يرد (منصور).. فتنهد رجل الشرطة وهو يقول بحسرة:

- أعلم أنك اتصلت بالشرطة وطلبت الحماية لزوجتك.. لكن اتصالك لم يكن مبنيا على أي أدلة.. فكما ولا شك أنك علمت.. لا يوجد أي سجل جنائي لـ(سميرة).. ولا حتى سجل في

مستشفى الطب النفسي.. لهذا لم نأخذ الأمر بجدية.. أعلم كذلك أن الاعتذار لن يغير شيئا.. لكن.. أتمنى أن تتفهم أن الشرطة لا تتحرك أبدا بناء على التوقعات أو التحذيرات.. فلا بد أن يكون هناك تهديد صريح أو خطر مؤكد.. وإلا ستصبح لدينا الكثير من الشكاوى الكيدية.

بدا وكأن كل هذا التبرير لم يفرق كثيرا مع (منصور) الذي انهمرت دموعه للمرة الثالثة في تلك الليلة.. في حين ركبت (سميرة) سيارة الشرطة وهي تشتم وتصرخ باسم (منصور) بطريقة هستيرية وتطلب منه إنقاذها.. ليظل رجال الأدلة الجنائية يفحصون الشقة جيدا ثم يطلبون من رجال الإسعاف حمل جثمان (آية) إلى المشرحة.. ويسدل الستار على هذه القصة الغريبة.. وعلى الأحداث المتسارعة التي لم تستغرق سوى ساعات معدودة.. لكنها انتهت بجريمة قتل.. ثم القبض على القاتل.. أو القاتلة على وجه الدقة.

طفل تائه

كنت أسير مبتسمة أول أيام عيد الفطر في ذلك المجمع التجاري الشهير وسط الزحام.. أدفع عربة الأطفال حيث تجلس فيها ابنتي التي أكملت عامها الأول منذ بضعة أسابيع.. وأمسك بيد ابني ذي الـ 3 سنوات والذي يسير بخطوات متعثرة كحال من هم في مثل سنه.. حيث بدا الجميع سعيدا وقد عادت الحياة إلى طبيعتها بعد شهر رمضان.

أجلس قليلا بعد ذلك على أحد كراسي الاستراحة أداعب ابنتي.. في حين يلهو ابني في مجموعة بالونات اشتريتها له وهو يمسك بيده الأخرى قطعة من الحلوى يلعقها بتلذذ.. قبل أن أنتبه إلى ذلك الطفل وهو يسير بخطوات مترددة مقتربا مني.. ولد جميل لا يتجاوز عمره 5 سنوات يرتدي ثيابا أنيقة وقد تركت والدته شعره الطويل منسدلا حتى بدا للحظة وكأنه فتاة.. فنظرْت إليه مبتسمة وهو يقف أمامي.. ليقول بقلق وبكلمات طفولية:

- لا أستطيع أن أعثر على أمي.

ابتسمت بحنان وأنا أمسك بيده.. لماذا جاء إليّ تحديدا؟!.. من المرجح أن والدته نصحته أنه لو تاه يوما.. فعليه أن يلجأ لأي أم معها أطفالها.. وهي النصيحة ذاتها التي وجهتها لابني منذ أن بدأ يتحدث ويفهم معاني المفردات.. جميل أن هناك أمهات أخريات ينصحن أطفالهن بذات النصيحة.. هذا أكثر أمنا بكثير من اللجوء لأي شخص يسير وحيدا.. فهناك الكثير ممن يملكون عقولا مريضة في هذا العالم ويفعلون أشياء قذرة مريضة مع الأطفال.

قلت للطفل مباشرة وبابتسامة مطمئنة:

- لا بأس يا صغيري.. سنبحث عنها معا.

أمسكت بيده وطلبت من ابني أن يمسك بفستاني لكي لا

يتوه هو الآخر.. ورحنا نسير بين الناس وأنا أدفع العربة بيد واحدة وأسأل الطفل بين لحظة وأخرى إن كان يرى والدته.. لكنه ظل يهز رأسه نفيا وهو على وشك البكاء.. وأنا أحاول بدوري أن أشعره بالاطمئنان بكلمات هادئة.. إلى أن وصلنا لنهاية المجمع التجاري من دون أن نعثر على والدته.. فأخرجت من حقيبتي حلوى مصاص وأعطيتها إياه.. وكعادة الأطفال.. أخذت الحلوى كل اهتمامه.. ونسي موضوع والدته لبعض الوقت.

عندها فقط.. تنفّست الصعداء.. أستطيع الآن أن آخذ طفلا جديدا معي إلى البيت!!!.. نعم.. لقد حرمت من الإنجاب لأسباب طبية منعتني من الزواج.. وهذا ما جعلني أحمل في قلبي حبا جما للأطفال.. أحب أن أمنحهم كل وقتي.. مهما كان عددهم.. فاختطفت ابنتي وعمرها لم يكن يتجاوز بضعة شهور.. ثم اختطفت ابني وعمره كان قريبا من السنتين آنذاك.. وهما الآن في رعايتي.. وسينضم إليهما هذا الطفل الجديد.. لهذا أسير دوما في المجمعات التجارية والأماكن العامة.. على أمل استدراج أي طفل تائه لأضيفه إلى قائمة أطفالي.

أشعر بسعادة غامرة الآن كوني سأصبح أما لـ 3 أطفال.. فأتركهم مع المربية خلال فترة عملي.. قبل أن أعود بلهفة لألتقي بهم.. بعضهم يبكي ليومين أو أكثر قليلا.. قبل أن ينسى كل ما يتعلق بوالدته.. فمن السهل دفع الطفل إلى النسيان.. خاصة لو كانت حياته الجديدة مع أم مثلي تمنحه كل الاهتمام والحب والرعاية.. أكثر مما قد تمنحه له والدته الحقيقية.. علي فقط أن أعثر على وسيلة لاستخراج أوراق رسمية جديدة لجميع أطفالي.. ما زلت عاجزة عن ذلك.. لكني سأجد حلا لتلك المشكلة.. حتما سأجد.

خاتمة

بعد فترة طويلة من البحث الذي بدأ حال فقدان الطفل الأول ثم الثاني.. وبعد حوالي سنة من هذه الحادثة التي تضمّنت اختفاء الطفل الثالث.. تمكن رجال الأمن من الوصول إلى تلك السيدة.. ومن ثم القبض عليها بتهمة اختطاف 3 أطفال على فترات متباعدة.. حيث قاموا بإرجاع كل طفل إلى أفراد أسرته.. وأحالوا السيدة إلى النيابة العامة لاستكمال الإجراءات القانونية تجاهها.

ثقب الباب

كانت الشقة التي عثرْتُ عليها مناسبة جدا بالنسبة لي كشاب تخرج من الجامعة للتو وعلى أعتاب وظيفة جديدة في مدينة بعيدة عن بيت العائلة.. لذا كنت سعيدا وأنا أتفقد الشقة متخيلا نفسي مستقرا فيها وقد وضعت كل قطعة أثاث في مكانها المناسب.. صحيح أن المجمع السكني قديم.. لكن لا بأس.. فالإيجار مناسب لميزانيتي المحدودة.. ومكان عملي قريب جدا بإمكاني الوصول إليه سيرا على الأقدام.. مما سيوفر علي المال الذي ظننت أنني سأنفقه لشراء سيارة.

بدأت حياتي في شقتي الجديدة شاعرا بأنني أخطو خطوات هادئة واثقة في بداية طريق الحياة.. خاصة حين أحببت أجواء وظيفتي وشعرت بالراحة تجاه زملائي في العمل.. فكانت الأيام تسير بهدوء انعكس إيجابيا على حالتي النفسية.. ولم يحدث خلالها ما يعكر هذا الصفاء النفسي سوى تلك الدقات الغريبة التي لم أنتبه لها في الأيام الأولى.. ففي كل مرة أخرج فيها من شقتي.. كنت أسمع صوت دقات مكبوتة تأتي من الشقة المقابلة.. وكأن أحدهم يضرب الحائط بقبضته بقوة.. علما بأنها شقة شاغرة لم تُستأجر بعد كما علمت من الحارس.

أثار الأمر فضولي بعد أقل من شهر منذ انتقالي إلى هنا.. خاصة مع الرتابة والفراغ اللذين أعيشهما بعد ساعات العمل.. لذا قررت الاقتراب ذات يوم من باب تلك الشقة لأسترق السمع.. فسمعت بالفعل صوت الدقات.. و.. صوت بكاء خافت جدا لفتاة.. بكاء لا يمكن أن تسمعه إلا لو التزمت الصمت التام وألصقت أذنك بباب الشقة.

نزلت إلى غرفة الحارس في الدور الأرضي لأسأله عن ذلك الصوت.. فأجاب وعيناه تنظران إلى أبعاد أخرى:

- الشقة خالية يا سيدي.. ربما يأتي الصوت من مكان آخر وقد ظننته أنت آتيا من الداخل.. عموما سأصعد بعد قليل وأتفقد

المكان.

لم يكن من العسير أن أدرك أن الحارس يخفي شيئا.. إنه يتجنب النظر إليّ بوضوح كحال كل من يكذب ويعرف أن نظراته ستكشفه.. فحاولت إحراجه وطلبت منه أن يفتح لي باب الشقة لأتأكد بنفسي.. لكنه ظل يقسم ويؤكد أن المفتاح ليس معه.. بل مع مالك العمارة.. كون الشقة ليست معروضة للإيجار أصلا لأسباب لا يعرفها.. مما أثار فضولي أكثر وأكثر.

بعد عودتي من العمل في اليوم التالي.. اقتربت من باب الشقة محاولا أن أسترق السمع للمرة الثانية.. لأسمع صوت الدقات أيضا.. إنه يتوقف للحظات.. ثم يستأنف من جديد.. وهكذا.. الغريب أنني لم أجرؤ على طرق الباب رغم أنه تصرف بديهي وتلقائي.. شيء ما أشعرني بالخوف من هذا التصرف البسيط.. لذا ظللت واقفا بعض الوقت أفكر بما يجب فعله.. لأنتبه إلى وجود ثقب صغير جدا في الباب قام أحدهم بصنعه بطريقة بدائية.. وهناك من دس فيه قطعة صغيرة من القماش لإغلاقه.

كان فضولي قد وصل إلى الذروة أمام هذا الاكتشاف.. فهرعت إلى شقتي.. لأعود سريعا وبيدي حقيبة تحوي عدة نجارة بسيطة لا يخلو أي بيت منها.. ثم قمت بإدخال مفك رفيع في ذلك الثقب محاولا دفع قطعة القماش لتسقط داخل الشقة.. حتى أسترق النظر وأتمكن من رؤية ما يحدث فيها علّني أفهم سبب صوت الدقات والبكاء اللذين أسمعهما باستمرار.. وبعد محاولات لم تستغرق وقتا طويلا.. سقطت قطعة القماش أخيرا.. فوضعت عيني مباشرة لأنظر.. ليرتجف جسدي بطريقة واضحة حتى كدت أفقد اتزاني!!.

لقد وقع بصري على صالة الشقة التي بدت خالية تماما من الأثاث.. لكن كانت هناك تلك الفتاة.. نعم.. فتاة يصعب معرفة عمرها.. لكنها على الأرجح في سن المراهقة.. هذا ما بدا لي من هيئتها الخارجية.. لأنني لم أتمكن من رؤية وجهها

بسبب شعرها الناعم الطويل الذي غطى ملامحها بطريقة باتت مألوفة في أفلام الرعب.. خاصة مع فستانها الأسود الطويل ذي الأكمام القصيرة والخدوش الحديثة التي ملأت ذراعيها ويديها.

كانت الفتاة تسير بلا هدى من دون أن أسمع لها سوى صوت البكاء الخافت.. ماذا عن الدقات؟!.. لم أجد الوقت لأفكر بإجابة على هذا السؤال.. لأن الفتاة وقفت فجأة مقابل الحائط.. لتقوم بأبشع منظر رأيته في حياتي.. حين راحت تضرب رأسها في الحائط بكل قوتها عدة مرات.. إلى أن تفجّرت منه الدماء وسقطت جثة هامدة.. فتوقفت أنفاسي معها.. وتراجعْتُ عائدا إلى شقتي وأنا ألهث بلا توقف من هول ما رأيت.

ظللت جالسا في شقتي محاولا أن أسيطر على أعصابي.. إلى أن هدأت قليلا.. ثم خرجت مرة أخرى لأنظر عبر الثقب والفضول يكاد يقتلني.. هذه المرة وجدت أن أحدهم قد وضع شيئا أشبه باللصقة على الثقب من داخل الشقة لكي يمنعني من النظر.. وكأنهم علموا أنني أتجسس عليهم.. من هم الذين علموا بذلك؟!.. لا أعرف.

المهم أن كل ما رأيته يوحي أن الشقة مسكونة.. كيف قفزت بسرعة إلى هذا التفسير غير العقلاني؟!.. لأنني اقتربت من الشقة للمرة الثالثة في نفس اليوم -قبل ذهابي إلى النوم بقليل- وألصقت أذني بالباب.. فسمعت ذات النحيب المكبوت والدقات.. ولا أظن أن الشقة تمتلئ بالفتيات وأن واحدة منهن بين لحظة وأخرى تقوم بذات الدور إلى أن تقتل نفسها.. إذ يبدو أن هذه الأحداث تتكرر أكثر من مرة يوميا.. وهو ما نقرأه ونسمع به عن الأشباح التي تكرر أفعالها.. ماذا عن اللصقة؟!.. من وضعها على الثقب في الداخل ليمنعني من التجسس؟!.. إنه تصرف بشري لا علاقة له بالأشباح.. هل للحارس علاقة بالأمر؟!.. لا أعلم.. فذهبت إلى النوم عاقدا العزم على التحدث مع الحارس غدا.

في صباح اليوم التالي وقبل ذهابي إلى العمل.. خرجت من شقتي ونزلت إلى الطابق الأرضي متجها إلى غرفة الحارس .. لأجده جالسا خارجها يلتهم ساندويتشا.. فأخبرته -ومن دون مقدمات- بمغامرتي الصغيرة في الأمس.. ثم سألته بصرامة:

- الشقة المقابلة.. أنا واثق أن هناك قصة خلفها.. أخبرني بالحقيقة.

تجهمت ملامحه وهو ينظر إلى الأرض وكأنه تلميذ يتلقى التوبيخ من معلّمه.. ثم قال:

- بما أنك تجسست على الشقة ورأيت كل شيء بنفسك.. فالأفضل أن أخبرك.

لم أرد.. بل ظللت أنظر إليه وقد علمت أنني في طريقي لأكتشف كل شيء.. ليقول وهو يبتلع بقايا طعام توقف عن مضغه:

- هذه الشقة مسكونة.

قالها وكأنه يتوقع مني أن أصرخ من هول المفاجأة.. لكني ظللت أنظر إليه منتظرا المزيد.. ليكمل:

- كان يقطن الشقة رجل وزوجته.. مع ابنتهما التي كانت تعاني مشكلة ما.. لست خبيرا في هذه الأمور.. لكني سمعت رجال الشرطة يتحدثون ليلة الحادثة عن أن الفتاة مختلة عقليا.. وأن والديها أخطآ عندما فضلا بقاءها معهما بدلا من إدخالها مستشفى الطب النفسي.. فقد كانا يعتمدان على أقاربهما لرعايتها أثناء ذهابهما إلى العمل.. وللأسف.. كان عمها الحقير أحد المسؤولين عنها.. حيث استغل حالة البنت العقلية واعتدى عليها جنسيا كما أكد الطب الشرعي.. ويبدو أنه لم يتوقع ردة فعلها.. إذ ذهبت الفتاة إلى غرفة والديها.. لتعود وبيدها مطرقة.. فباغتت عمها وضربته بها إلى أن تهشمت جمجمته ومات بطبيعة الحال.

قلت بخفوت:

- يا إلهي.

أكمل الحارس برهبة:

- ويبدو أن شيئا ما في رؤيتها لدماء عمها أثار غضبها أو زاد من جنونها.. لا أعلم.. فقد قامت بضرب رأسها بالحائط إلى أن تهشّمت جمجمتها أيضا.. إن موقف انتحارها هذا يتكرر طوال الوقت.. تماما كما رأيته أنت من خلال ثقب الباب.. وبالطبع لم يحتمل والداها أن يقيما في الشقة بعد تلك الحادثة المروعة.. فرحلا عنها إلى الأبد.. ولكن لسبب أجهله.. ظلت روح ابنتهما هائمة في نفس المكان لتكرر طريقة موتها طوال الوقت رغم أننا فعلنا كل شيء قد يخطر ببالك لإيقاف ذلك.. الغريب أنني كنت أدخل الشقة ولا أرى أي أثر لشيء.. وإنما أسمع أصوات الدقات والبكاء فقط.. لكن حين صنعت ذلك الثقب.. رأيت ما رأيته أنت.. إنها أشياء يعجز العقل عن تفسيرها كما تعلم.

سألته بحنق:

- لقد أخفيت القصة عني كي أقوم باستئجار شقتي وأكون جارا لشقة الأشباح هذه.. أليس كذلك؟!.

رد بصدق:

- لقد حاولت أن أخفي عنك الأمر كي لا تشعر بالخوف.. عموما.. أنت تعيش آمنا في شقتك.. وتستطيع تجاهل ما يحدث في الشقة المقابلة.. أما لو أردت الخروج.. فلن يلومك أحد.

انتهى من الكلام.. أما أنا فقد عقدت العزم على إعادة النظر بموضوع إقامتي هنا.. ثم تذكّرت.. و:

- مهلا.. مهلا.. لقد كانت هناك لصقة وضعها أحدهم على ثقب الباب من الداخل بعد أن أزلت بنفسي قطعة القماش وتمكنت من معرفة ما يحدث داخل الشقة.. من وضع تلك

اللصقة؟!.

ارتجف صوته وهو يقول:

- لا توجد أي لصقة.. لقد شعرَت الفتاة أن أحدهم يتجسس عليها من الخارج يا سيدي.

بدت لي عبارته مقتضبة غير مفهومة في البداية.. ثم بدأت أستوعب.. لتتسع عيناي رعبا وأنا أقول بذهول:

- يا إلهي.. هل تعني.. هل تعني....

عجزْتُ عن نطقها.. ليكمل هو عبارتي:

- نعم.. لقد كانت الفتاة تنظر إليك بدورها عبر الثقب بعد أن شعَرَت أنك تتجسس عليها!!.. وهذا ما جعلني أغلق الثقب بدس قطعة صغيرة من القماش.. تلك القطعة التي أزلتها بنفسك.. لأنني تجسست عليها أيضا وقد أرعبني المنظر كثيرا.. ولو ظللت تنظر في الثقب وحاولت أن تركز في سمعك بنفس الوقت.. ستتأكد من كلامي.. لأنك ستسمع صوت أنفاس الفتاة.. وستراها بعد دقيقة أو أكثر قليلا وهي تبتعد لتبدأ بتكرار السيناريو ذاته بالسير في أرجاء الشقة ومن ثم ضرب رأسها بالحائط.. أمر مرعب أن تجد شبحا يتفاعل مع تصرفاتك.

كان ما ذكره لي مخيفا للغاية.. أنا الذي ظننت أن أحدهم وضع لصقة ما من داخل الشقة على ثقب الباب كي يمنعني من التجسس.. ليتضح أن الفتاة انتبهَت إلى أنني أتجسس عليها فراحت تتجسس عليّ أيضا وهي على بعد سنتيمترات قليلة ولا يفصل بيني وبينها سوى الباب.. و.. استدرت بجسد مرتجف من غير أن أنطق بكلمة.. لأعود إلى شقتي وأقفل الباب على نفسي رغم علمي أن الأبواب لن تحميني من شيء.. وأن تلك الأشباح ربما لم تصبني بأي ضرر مادي.. لكن ضررها المعنوي لا يمكن تجاهله.. يبدو أن بعض الأماكن تظل مسكونة حتى بعد رحيل أصحابها!!.. وهذا ما جعلني أطلب من الحارس يومها أن يعيد قطعة القماش إلى مكانها.. وقد

قررت أن أترك هذه الشقة في القريب العاجل.. فلا يمكن أن أعيش هنا وأنا أسمع تلك الدقات والنحيب يوميا عند خروجي أو دخولي إلى شقتي.. لا يمكن أن أذهب إلى النوم عالما أن هناك أجواء مسمومة غير طبيعية ولا يمكن تفسيرها في الشقة المقابلة.. خاصة بوجود شبح يتفاعل مع تحركاتك.. وينظر إليك حين تنظر إليه.. من خلال ذلك الثقب.. ثقب الباب.

قبلها بلحظات

المدعو (بسام).. ربما لا تعرفون عنه الكثير.. إنه مجرد رجل عادي في منتصف الثلاثينيات من العمر.. بل هو مفرط في عاديته.. يذهب إلى عمله في تلك الجهة الحكومية.. ويعود منه كل يوم ساخطا ناقما على حياته بعد أن أرهقته الديون وبات يشعر أنه محاصر من كل مكان.. فلا يوجد أي بصيص أمل لتكون حياته أفضل.. حتى ظل ذلك السؤال الذي يطارده يوميا أشبه بالكابوس.. هل ستكون حياته بهذه الصورة طوال العمر؟!.. هل سيكون تحت تلك الضغوط المادية إلى يوم وفاته؟!.

أما زوجته فتحاول مساعدته في المصاريف كونها موظفة أيضا.. لكن هذا ليس كافيا.. إن متطلبات الحياة كثيرة جدا لأي أسرة.. والأسعار ترتفع باستمرار.. حتى أنهما اكتفيا بإنجاب ولدين.. فقد شعرا -بعد أن رُزقا بالولد الثاني- بمأزق حقيقي.. وأن الأمر سيتحول إلى مصيبة لو أنجبا طفلا ثالثا.

لقد ارتكب (بسام) غلطة عمره عندما حصل على قرض مرتفع ليبدأ مشروعا تجاريا كحال عدد ليس بالقليل من الشباب.. المشكلة أنه لم يكن يمتلك أي مهارات تؤهله لإدارة أي مشروع أصلا.. فبدأ يخسر بالتدريج.. إلى أن فقد كل شيء.. وبات مديونا للبنك ولبعض الأشخاص كذلك.. وأصبح راتبه لا يكفيه لمنتصف الشهر.. وهذا ما جعله يقوم بإجراء حسبة مالية دقيقة جدا تخلّى فيها عن أشياء كثيرة لكي تستمر حياته وحياة أسرته.. وهذا أشعره بالاختناق الشديد.. خاصة وقد بدأ الولدان يكبران.. بل أن الكبير وصل إلى سن المراهقة بالفعل.. فزادت طلباته واحتياجاته.. وحال (بسام) يزداد سوءا.

وبسبب هذه الضغوط.. راح يبحث عن الهروب المؤقت.. من خلال العلاقات العابرة خارج إطار الزواج.. أي شيء يلهيه عن حياته المستحيلة التي يعيشها.. وقد ساعدته وسامته

وطوله الفارع على اجتذاب الفتيات.. خاصة تلك المطلقة الثرية التي التقت به صدفة في أحد الأسواق التجارية.. فانتبه لنظرة إعجابها به وابتسامتها.. لينتهي الأمر بحوار قصير.. ثم تبادلهما أرقام هواتفهما.

كانت هذه بداية علاقة قوية استمرّت لشهور بين (بسام) والمطلقة الثرية.. علم خلالها أن حبيبته هذه تعيش وحيدة وأنها عاقر لا تنجب.. وأن هذا سبب طلاقها من زوجها السابق وعدم زواجها منذ ذلك الحين.

لقد تطورت الأمور بينهما سريعا.. ويبدو أن تلك السيدة أحبت (بسام) بالفعل.. إذ قدَّمَت له عرضا لا يمكنه رفضه.. فقد طلبت منه أن يطلق زوجته ويتزوجها هي.. لأنها لن تقبل أبدا أن تكون زوجة ثانية.. وستقوم نظير ذلك بتسديد كل ديونه.. كما وعدته أنها ستجعله مديرا لأعمالها.. مع راتب كبير يتجاوز راتبه الحكومي بضعفين على الأقل.. إلا أنها ستكون متحكمة بكل خيوط ثروتها كونها لا يمكن أن تمنح أحدا ثقتها كاملة حين يتعلق الأمر بأموالها.. وقد أبلغت (بسام) كذلك أنه سيقيم معها -بعد زواجهما- في فيلتها الفاخرة.. وأنها لن تظلم زوجته.. بل ستقوم بإيداع مبلغا كبيرا في حسابها لتقوم بتربية الولدين.

حياة جديدة جميلة تنتظر بطل قصتنا.. كل ما فيها يوحي بالسعادة وانتهاء مشاكله.. والثمن أن يطلق زوجته فقط.. زوجته التي لم يحبها أصلا.. بعد أن ارتبط بها بناء على تقاليد عائلته بضرورة الارتباط بقريبته.. كما أنه لن يخشى ردة فعلها في كل الأحوال.. فهي التي تهابه من الأساس وتخشى صرامته وحزمه في تعامله معها.. ولكن (بسام) انتظر بعض الوقت قبل إعلان موافقته.. وذلك للحفاظ على كرامته أمام حبيبته.

في اليوم الذي قرر فيه إبلاغها بموافقته.. اتصل بها وطلب منها أن يلتقيا للأهمية بإشارة واضحة إلى موضوع الزواج..

فتقابلا في الموعد المحدد بمواقف سيارات أحد الأسواق المركزية.. حيث ترك سيارته هناك واتجه لسيارة حبيبته الفارهة ليطلب منها أن تترجل من مكانها وتسمح له بالقيادة.. كما يحب ويفعل عدد ليس بالقليل من الرجال.

ويبدو أن هذا أسعدها.. إذ امتثلت لطلبه وجلست في المقعد الجانبي.. ليبدأ القيادة ويتجه بالسيارة إلى أحد الخطوط السريعة.. ثم راحا يتجاذبان أطراف الحديث حول أمور مختلفة.. قبل أن يعلن (بسام) عن موافقته على عرضها وعلى كل شروطها.. وأنه مستعد أن يكون معها طوال العمر.. فابتسمت هي بسعادة.. وبدأت تتحدث معه عن بعض التفاصيل الصغيرة التي استمع إليها مبتسما وهو يشعر أن الحياة ابتسمت له أخيرا.. لكن شعوره هذا لم يدم كثيرا.. إذ فقد انتباهه للحظة وهو ينظر إلى حبيبته التي أخبرَتْهُ أن هناك مفاجأة بانتظاره.. وهذه اللحظة كانت كفيلة بأن ينحرف بالسيارة إلى اليمين من دون قصد وهو على أحد الجسور البعيدة عن المناطق السكنية.. حسنا.. إنه لا يعرف ولا يتذكر كيف سارت الأمور بعد ذلك.. فقد اصطدم بسيارة أخرى تسببت بانقلابه أكثر من مرة إلى أن اصطدم بالصبّة الاسمنتية.

لم يفقد (بسام) وعيه.. وإنما فقد استيعابه لما حدث بعض الوقت.. إلا أنه تدارك الأمر بسرعة بعد الهدوء الذي ساد المكان.. وشعر أنه لم يتعرض لإصابات بليغة لحسن الحظ.. ثم التفت ليطمئن على حبيبته.. فوجدها تحدق في الفراغ بعينين مفتوحتين وقد امتلأ وجهها بالدماء.. لقد ماتت.. لا يحتاج ليكون طبيبا كي يعرف ذلك.. حسنا.. إن قلبه لم يتعلق بها كثيرا كي يبكي حزنا على فقدانها.. لكن عليه أولا الخروج من السيارة المقلوبة ومن ثم التفكير.

خرج من السيارة بصعوبة شاعرا بآلام بسيطة في ساقه لا تتجاوز الكدمات.. وظل للحظة واقفا على الجسر لا يعرف كيف يتصرف.. ليقع بصره على السيارة التي صدمها والتي بدت

في أسوأ حال ممكن.. من المرجح أن صاحبها توفي كذلك.. أو تعرض لإصابات بليغة على أفضل تقدير.. ما الذي سيفعله الآن؟!.. يتصل بالشرطة؟!.. كاد أن يفعل ذلك.. لكنه انتبه إلى أنه لا يرتبط بحبيبته بأي صفة رسمية بعد.. وهذا يعني أنه خسر كل ما وعدته به.

ظل يلتفت حوله خوفا من قدوم أي سيارة عابرة وهو لم يتخذ قراره للخطوة التالية بعد.. ثم اتجه ناحية حبيبته وهي ما تزال على كرسيها في السيارة المقلوبة.. لتقع عيناه على الساعة الثمينة التي ترتديها.. وأساور الذهب.. وحقيبتها التي فتحها بسرعة ليرى ما يقارب 5آلاف دينار.. يبدو أنها سحبت المبلغ وكانت ستمنحه إياه لتحسين وضعه مؤقتا قبل الزواج.. فقد تذكر للتو أنها -وبعد أن وافق على عرضها- انحنت لتفتح حقيبتها وهي تخبره أن هناك مفاجأة بانتظاره.. نعم.. هذا ما جعله يفقد انتباهه ويرتكب الحادث.. المهم الآن عليه بنقل حبيبته إلى مقعد القيادة كي يعطي الانطباع أنها هي التي كانت تقود.. ولوحدها.. ثم يأخذ كل (الغنائم).. ويهرب مباشرة.

بدأ بعد ذلك رحلة العودة سيرا على الأقدام وهو يعرج متألما.. إلى أن ابتعد كثيرا عن مكان الحادث.. فتوقف للحظات متسائلا إن كان الأفضل أن يتصل بسيارة أجرة مثلا.. لكنه شعر بحاجة ماسة إلى التفكير وترتيب ملفات عقله.. ليقرر إكمال السير لساعة أو أكثر ربما إلى أن يصل إلى شقته.. يفكر إن كان أحدهم سيكتشف أن حبيبته كانت برفقة أحدهم.. ولو كشف رجال الشرطة ما حدث.. هل سيتم اتهامه بشيء؟!.. إنه لم يفعل سوى أخذ مقتنياتها الثمينة والمال الذي كان من المقرر أن يأخذه أصلا.. كما أن كل شيء يوحي بأنها ارتكبت حادثا مروريا عاديا.. خاصة وأن عددا ليس بالقليل من الفتيات يخشين الجسور المعلّقة المرتفعة.. كالجسر الذي كانا عليه.

كان يطمئن نفسه بهذا الكلام ويتحسر على فرصة العمر التي ضاعت.. وعلى حبيبته التي جاءته على طبق من ذهب

وقدمت له عرضا مذهلا.. قبل أن تنهار أحلامه في لحظة.. فلَم يجنِ من ثروتها سوى الشيء القليل من المال والذي لن يساعده كثيرا بتغيير حياته إلى الأفضل.

وصل إلى شقته أخيرا وما زال الشعور بالإحباط يقتله.. ثم.. شعر بالدنيا تدور فيه بطريقة غريبة.. وأنه بدأ يفقد وعيه.. فحاول وضع يده على الباب ليستند إليه ويلتقط أنفاسه.. لكن يده خذلته وهو يشعر بضعف عام جعله عاجزا عن الوقوف.. وقبل أن يقع على الأرض.. عاد إليه وعيه في لمح البصر.. ووجد نفسه فجأة مرة أخرى في السيارة مع حبيبته التي انحنت لتمنحه الهدية من حقيبتها.. لينتبه في لحظة سريعة للغاية أن كل ما مر به من حادث مروري وأخذه للمال وسيره على قدميه إلى شقته لم يكن سوى حلم!!.. لكن.. مهلا.. كيف يكون حلما و(بسام) لم يكن نائما أصلا أثناء قيادته للسيارة؟!.

لم يملك الوقت للعثور على إجابة لتساؤلاته.. فخلال تلك اللحظات القليلة.. ارتكب (بسام) الحادث.. نفس الحادث.. وبكل التفاصيل الدقيقة التي ذكرناها.. ليكْتشِف تلك الحقيقة المروعة.. أنه لم يكن يحلم في واقع الأمر.. بل كان يمر في لحظة استبصار(15) رأى خلالها كيف سيموت بعد ثوان قليلة من الآن.. ثوان لا تكفيه أبدا كي يستوعب ما يمر به ويتفادى الحادث!!.. فظل صامتا مصدوما ممتلئا بالجروح والإصابات الخطيرة.. ثم التفت ليرى حبيبته ميتة على المقعد المجاور.. تماما كما رآها في لحظة الاستبصار التي مر بها.

وظل ذلك السؤال يسيطر على تفكيره قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة.. فهل كل من يقترب كثيرا من لحظة موته.. سيرى ذلك في لحظة استبصار قبل أن يموت فعليا؟!.. أم أن ما حدث له تجربة نادرة ولن تتكرر مع غيره؟!.. لن يعرف الإجابة أبدا.. ولن نعرفها نحن أيضا.. وسنظل نطرح نفس السؤال إلى ما قبل أن يحين أجلنا بثوانٍ قليلة.. ولو كانت الإجابة بالإيجاب.. فسيكون مؤلما أن تكتشف موعد موتك قبل حدوثه فعليا بوقت قصير

جدا يستحيل خلاله أن تتخذ أي خطوة لإنقاذ نفسك.

السر الذي يخفيه زوجي

نعم.. هناك سر يخفيه زوجي.. لا أعرف ما هو بالضبط.. لكن عادة ما تكون الأسرار مريبة وإلا لن يخفيها الناس.. فهذا التغيير المفاجئ في حياته غير مفهوم.. لقد كان شخصا منعزلا يقضي معظم أوقاته في البيت أمام الأجهزة الإلكترونية.. وكنت أتشاجر معه كثيرا بسبب ذلك.. وأطلب منه أن يخرج ويحاول ممارسة بعض الأنشطة الإيجابية.. أبسطها الذهاب إلى الأندية الرياضية مثلا.. فكان يوجه اتهاماته لي بأنني لا أحبه ولا أريد بقاءه معي.. لأرد مدافعة وأؤكد له أن نمط حياته هذا سيدمر صحته.. ومن غير المعقول أن أخرج أنا من البيت أكثر منه.. بينما لا يفعل هو سوى الذهاب إلى العمل والعودة منه كل يوم.

لكن منذ حوالي سنتين فحسب.. حدث ذلك التغيير المفاجئ في حياته وتحول إلى شخص آخر تماما يقضي جل وقته خارج البيت وأكاد لا أراه تقريبا.. ففي البداية أخبرني أنه كوَّن صداقات جديدة.. وأنه سيخرج إلى التخييم في الصحراء مع هؤلاء الأصدقاء الجدد.. والواقع أن هذا أفرحني كثيرا في بادئ الأمر.. حيث ظننت أنه قرر أخيرا الاستماع لنصائحي وأن يتبع نمطا جديدا في حياته.

لكن فرحتي هذه تلاشت في فترة قصيرة.. لأن أوقات غيابه ظلت تتضاعف وتتضاعف بتصاعد سريع وغريب.. وأصبح مهتما فجأة بالتخييم في الصحراء مع أصدقائه طوال الوقت.. إلى درجة أنه أخذ إجازة طويلة في فترة الشتاء ليبيت في المخيم ولا يعود إلى البيت إلا لساعات قليلة بين يوم وآخر.. وعندما خلا رصيده من الإجازات.. أصبح يقضي الليالي في المخيم.. ليستيقظ صباحا ويذهب إلى العمل ثم يعود إلى المخيم.. وكأنه غير متزوج.. حتى كانت تمر أياما طويلة يقضيها بأكملها بعيدا عني ولا يعود إلى البيت إلا لحاجة ضرورية.. كغسيل ثيابه المتسخة مثلا.. لذا أؤكد أنني لم أجلس معه أو أراه إلا نادرا

في تلك الفترة.

لقد كنت أعزو الأمر إلى اكتشافه لحياة جديدة مع هؤلاء الأصدقاء وأنه أصبح أخيرا إنسانا اجتماعيا.. وأن لهذا التغيير السريع تبعاته ولا شك على شخصيته واهتماماته.. متأملة أنه سينتبه بنفسه لكثرة غياباته أو ربما سيقل حماسه تجاه أصدقائه.. لكني كنت مخطئة.. فقد نسي وجودي.. ونسي واجباته الزوجية.. وبتنا نتشاجر كثيرا بسبب غيابه المستمر.. لينهي الشجار في كل مرة بعد أن يغلق الخط في وجهي.. ويكون قبلها قد أسمعني كلاما كرره عشرات المرات بأنه امتثل لطلبي وأصبحت له صداقات كثيرة وعلاقات اجتماعية جعلته سعيدا في حياته.. ولا يحق لي الآن أن أعترض أو أنكد عليه.

كان النقاش معه أشبه بحوار الطرشان.. فهو لا يريد أن يستمع إليّ.. ويبحث عن أي وسيلة للشجار كي تكون له حجة في الابتعاد.. ولا أنكر أنني تراجعت كثيرا بالتفكير في مسألة الإنجاب.. لأنني بت غير واثقة إن كان هذا الزواج سيستمر أصلا.. منتظرة فترة الصيف وانتهاء موسم التخييم.. على أمل أن تعود حياتنا إلى طبيعتها.

وحين بدأ فصل الصيف.. عاد زوجي إلى عزلته واستقراره في البيت معظم الأوقات بالفعل كما كان في السابق.. لكنه أصبح شديد العصبية حاد المزاج.. يصرخ دوما ولا يحتمل أي كلمة مني.. ويقضي أوقاتا طويلة في الحمام أو في غرفة المكتب.. أو أي غرفة أخرى بعيدا عني.. ويخرج في كل مرة أكثر غضبا.. وبالطبع توقفت عن محاولة فهم ما يحدث.. لأنه بات ينفجر في وجهي عند أي محاولة للتحدث معه.. حتى بت أقضي حاجياتنا من السوق المركزي بنفسي ولم أعد أطلب منه شيئا خوفا من غضبه.. في حين لم يكن يقدم من ناحيته سوى مصروفنا الشهري فقط.. وكأنه بهذا أدى كل ما عليه.

لقد تحدثت مع شقيقه وطلبت منه مساعدتي.. فوافق

مباشرة وهو يؤكد لي أن الجميع لاحظوا التغييرات التي طرأت على زوجي بالفعل.. إذ بات شديد السرحان لا يقبل التحدث مع أحد.. ولا يزور بيت عائلته إلا بسبب إلحاح والدته فقط.. وحين يفعل.. يجلس صامتا متوترا ينظر إلى هاتفه بين لحظة وأخرى ينتظر مرور الوقت مترقبا خروج أول الزائرين.. ليلحقه هو مباشرة.

كما أكد لي أحد الأطباء من أفراد العائلة أن زوجي لا يعاني أي مشاكل إدمان للمواد المخدرة أو الكحوليات إن كان هذا ما يخطر ببالنا.. وإلا لكانت الأعراض واضحة عليه ولن يغفل عنها أحد.. الغريب أنه لم يكن يزور أصدقاءه هؤلاء كثيرا في فترة الصيف.. ولم تكن هناك أي تجمّعات لهم كما علمت منه.. مما أثار استغرابي أكثر وأكثر.

لقد فكرت في كل الاحتمالات.. حتى تلك التي استبعدها قريبي الطبيب.. ففي البداية ظننت أن زوجي ربما يتعاطى المخدرات بالفعل ولكن من دون إدمان.. وقد تكون سبب رغبته الشديدة بالتواجد في الصحراء هو حبه لـ(تدخين العقارب)(16) الذي قرأت عنه صدفة في إحدى وسائل التواصل الاجتماعي.. لكني استبعدت هذا الاحتمال كونه لا يذهب إلى الصحراء في الصيف وهو الوقت الأمثل لصيد العقارب.

ثم فكرت في خيانته لي ووجود فتاة أخرى في حياته.. لكنه لم يكن يستخدم هاتفه كثيرا أصلا.. بل يتركه في غرفة النوم أثناء عزلته في الحمام أو غرفة المكتب.. أو أي مكان في البيت بعيدا عني.. وقد استبعدت فكرة استخدام المخيم للرذيلة أيضا.. وإلا لكان بإمكانه مع أصدقائه نقل ممارساتهم إلى شقة أو مزرعة.. وعموما فإن كل هذه الاستنتاجات لا تفسر تصرفاته أبدا.

ظللنا على هذا الحال إلى أن اقتربنا من فصل الشتاء وجاء موسم التخييم الجديد.. ليتبدل مزاج زوجي بصورة مفاجئة..

وبت أراه هادئا مبتسما وقد عاد لتكرار ما كان يفعله في الموسم الماضي.. إذ يخرج مع أصدقائه إلى المخيم.. ويغيب بالأيام والأسابيع كما فعل في المرة الأولى.. هنا فقط.. قررت أن أراقبه بمساعدة شقيقه.. وقد تأكدنا حينها أن السر يكمن بما يحدث هناك.. شيء ما يحبه زوجي ويفعله في رحلات التخييم ولا يمكن أن يفعله في أي مكان آخر.. وهذا على الأرجح سبب حالته النفسية السيئة وسلوكياته الغريبة طوال فترة الصيف.

لم تكن مسألة المراقبة صعبة.. لكنها كانت تحتاج إلى بعض التخطيط ودقة في التوقيت.. إذ علينا انتظار عودة زوجي في أي لحظة.. حيث سيقضي بعض الوقت في الاغتسال وأخذ ثياب جديدة مع ترك ثيابه المتسخة كما هي العادة.. على أن أتصل بشقيقه مباشرة وأطلب منه القدوم والانتظار في سيارته على مسافة قريبة نسبيا تسمح له بالمراقبة من دون أن يلفت الانتباه.. وحال خروج زوجي متجها إلى المخيم.. سأخرج بدوري مسرعة وأركب مع شقيقه لنلحق به.

وفي ذلك اليوم.. عند عودة زوجي من المخيم وذهابه للاغتسال.. اتصلت بشقيقه أطلب منه المجيء حالا.. لتسير الأمور كما خططنا لها.. حيث خرج زوجي متجها إلى المخيم.. وخرجت بعده بلحظات.. وما إن ركب سيارته وقادها مبتعدا.. حتى جاء شقيقه مسرعا.. فركبت معه وأنا أصيح به أن ينطلق بسيارته.. آملين أن ننجح في تتبع زوجي ولا نفقده بين السيارات في الشارع وقد ارتدينا قبعات تخفي ملامحنا قليلا.

كنا نسير خلفه بصمت تام وبمسافة كافية لا تثير الشكوك.. والتركيز بأكمله على عدم لفت انتباه زوجي أو ضياع أثره.. وأفواج كبيرة من السيارات حولنا متجهة كلها لمنطقة التخييم التي تكون مزدحمة في هذا الوقت من السنة بطبيعة الحال.. إلى أن وصلنا بعد أكثر من ساعة إلى ذلك المخيم الذي بدا منعزلا عن بقية المخيمات.. حتى أننا اضطررنا لإيقاف السيارة

بمكان بعيد.. و:

- ماذا سنفعل الآن؟!.

سألني شقيقه مستفهما.. لكني لم أجب.. بل نظرت إليه وأنا أخرج من حقيبتي مكبّرا اشتريته خصيصا لهذه المغامرة.. فابتسم إعجابا وكأن فكرتي شديدة العبقرية.. لأبتسم بتوتر بدوري وأنا أخرج من حقيبتي مكبّرا آخر وأمنحه له قائلة:

- 4 عيون.. أفضل من عينين.

أخذه مني ممتنا.. وبدأنا ننظر معا عبر المكبّرين لدقائق طويلة محاولين استكشاف المكان.. إنه مخيم كبير الحجم نسبيا.. ويحتوي على 5 خيام.. إحداها كبيرة جدا قياسا بالخيام الأخرى.. هي الخيمة الرئيسية والتي يجلس فيها زوجي مع أصدقائه.. وهي التي تظهر منها أكثر الأنوار عموما.

ظللنا ننظر عبر المكبرات من دون أن نرى أي شيء غير عادي.. ثم.. تحفزنا في مكاننا بعد حوالي نصف الساعة.. إذ خرج بعض -أو ربما كل- الموجودين في الخيمة وعددهم 4 أشخاص.. أبحث بينهم عن زوجي.. فوجدته بسرعة.. لأركز المكبّر عليه وأطلب من شقيقه أن يراقب البقية.. حسنا.. أرى 2 من أصدقائه ينفصلان عن المجموعة متجهين إلى إحدى الخيام الصغيرة.. ليخرجا منها وهما يحملان صندوقا بدائي الصنع كبير الحجم بدا لي أشبه بالتابوت.. إنه تابوت بالفعل.. لا يمكن أن يُستخدم هذ الصندوق لشيء آخر.

وضعوا الصندوق في حفرة موجودة داخل حدود منطقة التخييم الخاصة بهم.. هل ارتكب زوجي مع أصدقائه جرائم قتل ويرغبون بدفن الجثة؟!.. هذا ما ظننته للوهلة الأولى.. لكني أرى زوجي ينزل إلى الحفرة ويدخل الصندوق من دون أي ضغوطات من الآخرين.. ويبدو أنه أغلق الصندوق على نفسه.. إذ بدأوا بآخر ما توقعت أن أراه في حياتي.. لقد حملوا رفوشا كانت على الأرض.. وبدأوا بالدفن.. نعم.. إنهم يدفنون زوجي

حيا.. أي طقوس شيطانية هذه؟!.. ما الهدف من كل هذا؟!.

كان الموقف أقوى مني ومن شقيق زوجي.. إذ لم تتوقف شهقاتنا للحظة من هول ما رأينا.. وفي لحظات كهذه.. لا يمكن أن يتصرف المرء بعقلانية.. مما جعلني أترجل من السيارة وأركض بذعر تجاه المخيم بدلا من أطلب من شقيق زوجي أن يقود السيارة تجاههم.. ليفعل هو الأمر ذاته ويلحقني راكضا.. إلى أن وصلنا إلى المخيم وقد أصبح التابوت تحت التراب بدرجة كبيرة.

من المؤكد أن ظهورنا المفاجئ أثار ذعرهم.. خاصة حين رحت أصرخ وأتهمهم بالجنون وأنا أطلب منهم أن يخرجوا زوجي من تحت التراب فورا.. وشقيق زوجي يهددهم بالاتصال في الشرطة الآن إذا لم ينفذوا أوامرنا.. فانصاعوا لنا وبدؤوا بالحفر.. ولحسن الحظ أن الحفرة لم تكن عميقة.. إلا أن هذا لم يمنعني من القول:

- عليكم أن تتوسلوا إلى اللّه -سبحانه وتعالى- أن زوجي ما زال على قيد الحياة.

كل هذا وجميعهم مذعورون قلقون لم ينطقوا بكلمة منذ وصولنا.. فلا تسمع سوى صوت الهواء البارد وأصوات عملية الحفر.. إلى أن أخرجوا زوجي وسط نظرات انزعاجه التي لم أفهمها.. لينتبه إلى وجودي مع شقيقه.. عندها تبدلت ملامح الانزعاج هذه إلى الحرج الشديد.. وأكاد أقسم أنني لو كشفت خيانته مع فتاة أخرى.. لما رأيت نظراته تلك.

ليتحدث أخيرا بخفوت وهو ينظر إلينا بحرج شديد:

- دعونا نرحل من هنا وسأخبركما بكل شيء أثناء الطريق.

لم يكن الوقت مناسبا للتفكير بعقلانية.. لذا صرخت به بجنون:

- لن نذهب لأي مكان.. عليك أن تخبرني الآن بما يحدث هنا..

الآن.. الآن.

خرج من الحفرة بعد أن ساعده أصدقاؤه.. وقال مطرقا رأسه بالأرض:

- حسنا.. اهدئي أرجوك.. وسأخبرك بالحقيقة كاملة.. الحقيقة أنني.. أنني مُدمِن!!.

قالها وكأن علي أن أفهم كل شيء.. حتى أن شقيقه رد مستغربا:

- ما علاقة الإدمان برغبتك في الانتحار وبهذه الطريقة الغريبة؟!.

رد زوجي وهو عاجز عن النظر إلينا:

- لا علاقة للأمر بالانتحار.. والإدمان الذي أقصده هو أنني مصاب بـ(ولع الاختناق)(17).. جميعنا في هذه المجموعة نمارسه ونستمتع به عندما نتجمع هنا في المخيم.

لم أفهم معنى ذلك الـ(الولع بالاختناق).. لكنه شرحه لي باختصار وهو يشعر بالخزي.. فقلت بذهول:

- يا إلهي.. كم من الممكن أن تبقى مدفونا هكذا؟!.. إن العملية بأكملها عبارة عن جنون.. ولكن حتى الجنون يقود لبعض الأسئلة المنطقية أحيانا.. فلماذا لم تخنق نفسك بوسيلة أسهل بدلا من هذه العملية الشاقة؟!.

قال بأسى:

- لقد جربت أكثر من طريقة.. أبسطها وضع رأسي في كيس بلاستيكي على أمل الوصول للنشوة المطلوبة.. لهذا كنت أنعزل عنكِ لساعات في غرفة المكتب أو الحمّام.. لكن طريقة الدفن حيا ظلت الأكثر متعة.. فصنَعْنا هذا الصندوق بمقاييس حسابية دقيقة جدا تسمح للبقاء فيه قرابة الساعة قبل أن ينفد الهواء.. وبعدها.. ستبدأ عملية الاختناق ومن ثم الوصول إلى النشوة التي تستمر دقيقة أو أكثر قليلا.. قبل أن نحفر

بسرعة لنخرج الصندوق كي لا يتعرض المُدمِن للاختناق.. فالفارق بين الشعور بالنشوة والموت اختناقا ضئيلا جدا.

رد شقيقه مصدوما:

- لقد وضعت في ذهني عشرات الاحتمالات لما يمكن أن تفعله هنا مع أصدقائك.. لكني لم أفكر بهذا الاحتمال أبدا.. كل ما أعرفه عن الدفن حيا هو أنه فكرة مرعبة تسبب لي حالة من الـ(فوبيا) بمجرد التفكير فيها(18).

رد عليه زوجي بأسف:

- تشعر بالذعر من الفكرة لأنك إنسان طبيعي.. ولست مثلنا.. جميعنا هنا نعاني هذا النوع الغريب من الإدمان ونمارسه سرا طوال فترة بقائنا في فترة التخييم.. ولا يمكننا فعل ذلك في فترة الصيف كما تعلم.. فالحرارة ستكون لا تطاق وأنت على سطح الأرض.. تخيل أن تكون مدفونا تحتها.

انتهى من كلامه.. وظللت أنظر إليه وهو يحدّق بالأرض خجلا شاعرا باستحالة بقائي معه بعد هذا الاكتشاف.. لأنقل نظراتي إلى أصدقائه الذين تراجعوا إلى الخلف خجلا وإحراجا.. ثم أطلب من شقيق زوجي أن نرحل فورا.. لنعود أدراجنا إلى السيارة.. في حين ساد الصمت تماما خلفنا ونحن نسير مبتعدين.

بعد أيام قليلة.. طلبت من زوجي الطلاق.. فلا يمكن أن أنسى ما حدث.. ولا يمكن أن أعيش معه حتى لو تعالج من هذا الاضطراب.. لأنني بت أشعر بالاشمئزاز منه.. ولم يتأخر هو عن تنفيذ رغبتي.. حيث أثار موضوع طلاقنا زوبعة عائلية سرعان ما انتهت بسلام.. بعد أن أصررت على موقفي وأن هناك خلافا بيننا لا أريد التحدث عنه أو ذكره.. فقد توسل إليّ زوجي قبلها ألا أخبر أحدا بهذا الأمر.. كما وعده شقيقه أيضا أن يحتفظ بالسر وأن يساعده على التعافي من هذا الإدمان الذي لم أسمع به في حياتي سوى الآن.. لتنتهي القصة عند هذا الحد.. وبعد أن عرفت السر.. السر الذي يخفيه زوجي.

مرايا

- يجب أن يموت عمي.. فلَم تعد هناك أية حلول أخرى.

قلتها لزوجتي بعد جدال طويل.. فردت بيأس:

- يبدو وكأنه سيعيش إلى الأبد.. لقد ساءت حالته كثيرا عندما كان في منتصف السبعينيات من العمر.. وظننا أنه سيموت أخيرا.. لكنه عاش رغم ذلك وهو الآن في منتصف الثمانينيات.. ولا أعلم كم سيعيش أكثر.. وكأنه يقاوم الموت ليحرمك من الورث.

قلت بعصبية تنم عن توتري الشديد:

- هذا ليس عدلا.. إن الديون والمصاريف تلاحقنا.. في حين يحتفظ هو بالملايين في رصيده البنكي بلا هدف.. إنه حتى لم يدعونا لنعيش معه في بيته رغم أنه يعلم بظروفنا ويعلم كم يستنزف إيجار شقتنا من راتبي.. لا أصدق كيف من الممكن أن يكون المرء بخيلا إلى هذا الحد.. خاصة تجاه ابن شقيقه الوحيد.. إنني كل ما تبقى له من العائلة كما تعلمين.. ورغم ذلك لم أشعر يوما أنه عمي.. فهو رجل غامض معدوم الأصدقاء لم يتزوج أبدا ولا أحد يعلم كيف جمع ثروته أصلا.. دعك من أنه لم يحضر حتى جنازة شقيقه الوحيد -والدي- ولم يفعل سوى الاتصال هاتفيا وترديد بعض كلمات العزاء السخيفة.. ثم اعتذر عن تقديم ما هو أكثر من ذلك كونه كان خارج البلاد وقتها في واحدة من سفراته العديدة التي أجهل كل شيء عنها أيضا.. إنه يحيط نفسه بأسرار كثيرة.

قالت وقد انتقل توتري إليها:

- ليذهب إلى الجحيم هو وأسراره.. نحن نريد ثروته فحسب.

قلت بنفاد صبر:

- علينا أن نتصرف.. نحن لم ندفع إيجار شقتنا منذ شهرين.. والمالك يهدد بمقاضاتنا كما تعلمين.. بعد فترة قصيرة

سيكون مصيرنا الشارع.

سكتنا طويلا.. وغرق كل منا في أفكاره.. ثم قلت ببطء:

- إنني أفكر بالتخلص من عمي.. أن أتسلل إلى بيته مثلا.. ثم أحمله وأدفعه دفعا من الدَّرَج.. فهو كبير في السن.. ولن يحتمل الوقوع بهذه الطريقة.. سيبدو الأمر وكأنه حادث منزلي عادي لن يثير الشكوك.

سألتني زوجتي باستنكار:

- تعني أنك ترغب بقتله؟!.

قلت بيأس:

- إنه يعيش سنواته الأخيرة عموما.. فلنعجل بموته كي ننقذ أنفسنا.

ردّت بحدة:

- إنها جريمة قتل وقد تُعدم أو تسجن بسببها.. ثم ماذا لو أن خطتك لم تتسبب بقتله؟!.. كثيرون يقعون من أعلى الدَّرَج ولا يموتون.. هذا احتمال قائم.

قلت بعصبية متجاهلا الشق الأول من كلامها:

- سأعيده إلى أعلى الدَّرَج.. وأدفعه مرة أخرى.. وأخرى.. إلى أن يموت.. فلا أحد يقيم معه سوى الخادمة.. ولا يوجد من يزوره سوى الطبيب الذي يطمئن على صحته مرة أو مرتين أسبوعيا.

ترسخت الفكرة في ذهني أكثر في الأيام التالية.. واقتنعت زوجتي أيضا بفكرتي مع حالة الاختناق المادي التي نعيشها ومع محاصرة الدائنين.. لأبدأ برسم تحركاتي القادمة مقررا إخراس ضميري كلما حاول إثنائي.. فقد قررت مراقبة بيت عمي أولا لبضعة أيام.. ومعرفة أوقات زيارة الطبيب الذي يشرف عليه.. ومكان غرفة الخادمة.. والعثور على الوسيلة الأنسب

لدخول بيته.. فبت أذهب يوميا إلى الحي السكني حيث بيته.. لأركن سيارتي بعيدا.. ثم أذهب ماشيا لاستكشاف المكان.. محاولا ألا ألفت انتباه أحد.. فعرفت الكثير بعد بضعة أسابيع.. وبت مستعدا نفسيا وذهنيا لتنفيذ خطتي.

في اليوم الموعود.. احتضنتْني زوجتي باكية وهي ترجوني أن أكون حذرا.. فحاولت طمأنتها وأنا أذكّرها أنني سأترك هاتفي ومحفظتي في السيارة.. وأنني سأتسلل إلى بيت عمي من دون أن أحمل في جيبي أي شيء على سبيل الحذر.. سوى كشاف ضوئي صغير وعدّة بسيطة لفتح النوافذ والأبواب.. ولن تكون هناك أي وسيلة اتصال بيننا طوال تلك الفترة.. كما ذكّرت زوجتي أنني لن أتصل بها حتى بعد نجاح خطتي وخروجي من بيت عمي.. لأنني سأكذب على الشرطة وأدعي أنني كنت موجودا معها في البيت عند حدوث الوفاة.. أو جريمة القتل إن أردنا الدقة.

اتجهت إلى بيت عمي والساعة تقترب من الواحدة فجرا.. وشوارع المنطقة السكنية تكاد تخلو من السيارات.. حيث ركنت سيارتي بعيدا.. وبدأت السير إلى بيته مرتديا قبعة تخفي معظم ملامحي.. وحال وصولي.. التقطْت نفسا عميقا.. وبدأ القلق يسيطر علي.. هذا متوقع.. لست معتادا على شيء كهذا.. فحاولت تمالك أعصابي ثم تسلّقت السور بسهولة بسبب لياقتي البدنية الجيدة.

أنا في داخل البيت الآن.. أنظر حولي مستكشفا المكان.. وأرى الساحة الداخلية التي أصابها بعض الإهمال.. كحال بيته من الخارج.. من الواضح أن عمي لا يرغب بأي شيء من هذا العالم.. مكتفيا فقط بكل هذه الأموال في رصيده البنكي.. فهو يريد تأمين مستقبله فحسب.. ابتسمت أمام عبارتي الأخيرة متذكرا أنني أتحدث عن رجل في منتصف الثمانينيات من العمر.

اتجهت إلى نافذة مظلمة في الدور الأرضي.. ورحت أنظر إلى

الداخل من خلال ثغرة في الستارة المغلقة -التي لم تستر كل شيء في الداخل- فقط لأطمئن أن لا أحد هناك.. وبدأت إزالة حاجز الحماية بواسطة مفك صغير.. على أن أعيد كل شيء كما كان حين أخرج.. ولحسن الحظ جرى الأمر بنجاح ويسر مع صوت الرياح القوي في تلك الليلة والذي غطى على أي صوت خرج مني سهوا.

أسير داخل البيت محاولا استذكار مكان الغرفة المضيئة في الطابق الثاني كما كنت أراها من الخارج.. أنظر حولي بواسطة الكشاف الضوئي ولا أرى سوى أثاث قديم مستهلك.. لكن.. لفت انتباهي شيء غريب كان من المستحيل أن يفوتني.. المرايا!!.. هناك مرايا في كل مكان.. من غير المنطقي أن يكون عمي قد وضعها على سبيل الزينة مثلا.. فمن يضع 4 مرايا كبيرة الحجم في غرفة واحدة وفي بيت قديم كهذا؟!.. وماذا عن وجود 5 مرايا بنفس الحجم في صالة البيت؟!.. هذا العم الأحمق غريب الأطوار فعلا.

صعدت إلى الطابق الثاني متجاهلا المرايا الموجودة على الجدار المواجه للدَّرَج أيضا.. لأصل أخيرا إلى غرفة عمي آملا ألا يكون الباب مقفولا فتصعب مهمتي.. لأبتسم بشيء من الارتياح حين استجاب لي الباب بسهولة.

أسلط الضوء على الغرفة لأرى عمي نائما في فراشه من دون غطاء.. وهو ما يفعله بعض العجائز.. إنها المرة الأولى التي أراه فيها منذ سنوات كان خلالها تواصلنا هاتفيا فقط.. لم يتغير شيء في ملامحه سوى أنه بدا أكبر سنا بكثير وهذا أمر متوقع بالطبع.. كما بدا نحيلا للغاية كحال كل من يقتربون من الموت.. وقد لمحت عند فراشه منضدة وضع عليها الكثير من الأدوية.. مع جهاز مناداة صغير يعمل بضغطة زر.. لا شك أنه يستخدمه لينادي الخادمة.. عندها فقد قررت التحرك.. فالعجائز يستيقظون بسرعة كما نسمع دوما.

أخذت نفسا عميقا.. ثم ضربته على صدره بكل قوتي..

ليشهق من هول المفاجأة.. لكني لم أمنحه الوقت ليلتقط أنفاسه.. لأنني حملته بيدي بسهولة وهو يطلق صراخا ضعيفا.. مما ألغى فكرة إخراسه وإغلاق فمه بيدي مثلا.. إذ كنت على ثقة أن أحدا لن يسمعه.. خاصة وأن غرفة الخادمة في الطابق العلوي كما علمت من مراقبتي للبيت طوال الأيام الماضية.

ذهبت به إلى الدَّرَج وهو يسألني بصوت واهن عن هويتي.. ويرجوني أن أسرق ما أشاء وأتركه في حاله.. كان واضحا أنه لم يتعرف ملامحي.. بينما ظللت أسير به بصمت ناحية الدَّرَج من دون أن أرد عليه.. عندها أنزلته ليقف أمامي مواجها لي.. ثم دفعته بعنف قبل أن يستوعب ما أريد فعله.. ليسقط ويتقلّب على الدَّرَج بطريقة درامية كدت أن أسمع خلالها تكسر عظامه.. إلى أن استقر على الأرض.. وأنا أنظر إليه من أعلى السلم وألهث من رهبة الموقف.. إنه لا يتحرك.. علي أن أتأكد من موته.. وعلى كل حال.. لو لم يمت فسأعيد الكرة كما ذكرت في بداية القصة.

نزلت بسرعة وأنا ألتفت حولي آملا ألا تكون الخادمة قد انتبهت إلى شيء.. لكن الهدوء يلف البيت بأكمله.. أقترب من أنفاسه.. إنه لا يتنفس.. أو نفسه ضعيف للغاية.. ما زال على قيد الحياة إذا.. سأعيد الكرّة.. ولكن هذه المرة لم يكن قادرا على الوقوف.. لأنه فقد الوعي.. فحملْتُه بنفسي إلى أعلى الدَّرَج ثم قذَفْتُه وكأنني أقذف لعبة.. ليرتطم بدرجات السلم ويستقر على الأرض بلا حراك.. عندها تأكدت أنه لقي حتفه.. لأن أنفاسه توقفت.. والدماء بدأت تنزف من فمه ورأسه.. حسنا.. الخطة نجحت.. هذا كل ما يمكن قوله.

تركته جثة هامدة وعدت إلى البيت أخيرا.. لأجد زوجتي بانتظاري وهي تحترق قلقا.. لكنها رأت ابتسامتي وهدوئي.. فعلمت أن الخطة نجحت.. لتحتضنني بسعادة وأنا أخبرها بكلمات هادئة أن الأمور سارت على ما يرام.. وأننا سنسمع خبر

وفاة عمي رسميا في أقرب وقت.

في اليوم التالي -وكما هو متوقع- وصلني اتصال هاتفي من أحد رجال الأمن يخبرني أن عمي توفي.. وأن الشرطة تحقق فيما إذا كانت هناك شبهة جنائية خلف وفاته.. وكان لا بد أن أتصرف بطريقة عقلانية عندما ذهبت إلى مخفر الشرطة.. إذ أخبرتهم صراحة أن علاقتي بعمي شبه مقطوعة.. لذا لم أبدُ لهم حزينا.. بل كانت فقط لحظات من الصمت المهيب الذي يصيبنا عند وفاة أي شخص من محيط العائلة.. وكان هذا منطقيا للجميع.

وقد رجحت التحريات وفاة عمي على أنها حادث منزلي عابر بسبب سقوطه من على الدَّرَج.. فكل شيء يوحي بهذا.. كما أن الخادمة بعيدة عن الشبهات كونهم لم يعثروا عندها على أي مسروقات مثلا مما ينفي استفادتها من موته.. أي أن الأمور سارت في أفضل صورة وكما أريد.

مرت الأيام التالية بهدوء وبلا مشاكل تذكر.. قبل أن أنتهي أخيرا من إجراءات الميراث.. لأحصل على البيت رسميا.. وأجد مبلغا من 6 أصفار في حسابي البنكي.. مبلغا لم أره في حياتي ولم أتوقع حصولي عليه يوما.. مما أصابني مع زوجتي بسعادة جنونية جعلَتْنا نسدد كل ديوننا ونخرج من شقتنا هذه بعد أن كرهنا الإقامة فيها كونها تذكرنا بأيام سوداء نرغب بنسيانها.. لننتقل إلى بيت عمي الذي أصبح بيتي الآن.. على أن نقيم فيه بصورة مؤقتة.. وأن أقوم ببيعه في القريب العاجل وأشتري أرضا في منطقة سكنية يسكنها الأثرياء لأبني عليها بيتا يفوق كل أحلامي.. عالما أن الحياة ابتسمت لي أخيرا.

أو.. هذا ما ظننته.. قبل أن تتغير الأحداث وتتسارع بصورة مفاجئة بعد انتقالنا إلى بيت عمي بيوم أو يومين فقط.. عندما كنت جالسا مع زوجتي في غرفة المعيشة في تلك الليلة المشؤومة نتحدث عن أحلام المستقبل التي سننفذها

قريبا وعن الخطوات القادمة لتغيير حياتنا إلى الأفضل.. وعن إبقاء خادمة عمي معنا -على الأقل مؤقتا- فهي آخر ما يشغل تفكيرنا حاليا.. ثم:

- ما هذا؟!!.

قلتها وأنا أقف مرعوبا أمام زوجتي التي انتقل ذعري إليها وهي تسألني عما جرى لي.. لأقول غير مصدق:

- هذا مستحيل.. لقد نظرت إلى المرآة الموجودة خلفك للحظة.. ولم أرَ فيها انعكاسي.. بل انعكاس وجه عمي.

وقفت زوجتي بذعر وهي تلتفت خلفها.. لكنها وجدت انعكاسنا ينظر إلينا ببلاهة.. لأقول وأنا أغمض عينيّ وأفتحهما كحال من يظن أنه رأى شبحا:

- أقسم لك أنني رأيت وجه عمي للحظة بدلا من انعكاس وجهي.. لكن.. عاد كل شيء طبيعيا بسرعة.

حسنا.. تعرفون كيف تسير تلك الأمور.. الظن بأنني توهمت.. أو أن هناك بعض المشاعر السلبية التي طغت عليّ.. وأن صوت الضمير بدأ يطل على عقلي الباطن لارتكابي جريمة قتل.. إلا أنني ظللت أحاول إقناع نفسي أنني كنت واهما.

لكن.. تكرر الأمر في اليوم التالي أيضا.. حين رأيت انعكاس وجه عمي -بدلا من وجهي- في مرآة أخرى من مرايا البيت.. وهذه المرة كنت واثقا أنني رأيته بوجهه الحليق وحواجبه الكثة كحال العجائز.. ينظر إليّ بصرامة غير عادية.. حتى أنني ضربت المرآة بقبضتي وبكل قوتي مفرغا انفعالاتي.. لتنكسر وتتناثر إلى قطع صغيرة رأيت انعكاسي فيها ولا شيء سواي.. فرحت أؤكد لزوجتي إنني على ثقة مما رأيت هذه المرة.. لكنها أصرت على أنني أعيش وهما لسبب ما.. لأخبرها غاضبا وأنا أضع المناديل على قبضة يدي التي جرحت نتاج فعلتي:

- لماذا باعتقادك يمتلئ هذا البيت بالمرايا؟!.. لا شك أنك انتبهتِ إلى وجودها حتى وإن لم تتساءلي عن السبب.

قالت وهي تهز كتفيها كناية عن جهلها:

- عزيزي.. أرجوك.. اترك كل ما يتعلق بموت عمك.. دعنا نستمتع بالمال ونحقق أحلامنا.. ولا تنسى أننا سنبيع البيت قريبا.. أما بخصوص كثرة المرايا فأنت لا تعلم كيف يفكر العجائز.. هناك سبب ولا شك.. لكن بكل تأكيد لا علاقة له بكلامك وظنونك.

كانت تتحدث وأنا أختلس النظر إلى المرايا حولنا بقلق شديد.. لأجد وجه عمي على إحداها أيضا بدلا من وجهي.. عندها فقدت أعصابي.. وصعدت إلى الطابق العلْوي محاولا الابتعاد عن المرايا.. فهناك حمام قديم غير مستخدم يخلو منها.. دخلته وقفلت الباب على نفسي لأقف وحيدا وأنا ألهث ذعرا.. يجب أن نخرج من هنا فورا.. هذا البيت ملعون.

ثم.. بدأت تتلاشى كل مخاوفي لسبب مجهول وبطريقة أعجز عن وصفها.. لتحل محلها مشاعر الثقة والطمأنينة.. أسمع صوت زوجتي تطرق الباب بذعر وتنادي علي.. ففتحته لها بهدوء.. لماذا تصلبّت ملامحها هكذا؟!.. لماذا تنظر إليّ برعب؟!.. ولماذا تلوح لي بيديها وكأنها تريد الابتعاد عني؟!.. لماذا تصرخ قائلة:

- يا إلهي.. يا إلهي.. كيف يحدث هذا؟!.

إنها تتراجع وهي تنظر إليّ.. إلى أن وصلَت إلى الدَّرَج من دون أن تنتبه إلى خطواتها.. ليتكرر المشهد.. نعم.. مشهد سقوط عمي.. الفارق أنني لم أدفع زوجتي هذه المرة.. بل سقطت بنفسها.. لا تنسوا أننا كنا قد انتقلنا للبيت منذ فترة قصيرة للغاية.. ولم نحفظ تفاصيله بعد.. و.. اصطدم رأسها بدرجات السلم عدة مرات أثناء سقوطها.. ويبدو أن قوة الارتطام بالأرض قتلتها.. وبطريقة بشعة انكسرت خلالها

جمجمتها كما هو واضح.. ثم رأيت رأسها ينزف بغزارة وقد تغير شكله.

كل هذا وأنا لم أفهم شيئا بعد.. لماذا شعرَت بكل هذا الرعب وهي تنظر إليّ؟!.. ولماذا لا أشعر بالصدمة لوفاتها بهذه الطريقة البشعة؟!.. ثم.. انتبهت فجأة إلى أنني أعرف الكثير.. الكثير مما كان يعرفه عمي.. هل هو تلبُّس؟! هل تلبَّسَت شخصيته(19)؟!.. لأنني لم أعد الشخص الذي كنت عليه.. فبيني وبين ذاتي.. أشعر أنني أحمل هوية عمي الآن.. وأشعر بالمعرفة الغزيرة إن كان للمعرفة شعور.

ذهبت مسرعا إلى غرفة عمي لأبحث بين أغراضه التي ما زالت في مكانها.. فأخرجْت منها هذا الدفتر.. دفتر قديم للغاية يعود إلى فترة الخمسينيات من القرن الماضي ربما.. وقد اصفرت أوراقه واهترأت بسبب كثرة الاستعمال.. كان الدفتر يمتلئ بالرسومات البدائية.. وكأن شخصا قد تعلم أساسيات الرسم للتو.. رسومات مجهولة ومهيبة في نفس الوقت.. مثلثات وعيون وأحرف وأرقام.. الغريب أن رسوما كهذه يفترض ألا تكون مفهومة أبدا لشخص مثلي.. لكنها بدت مألوفة لسبب ما.. إنني أعلم الآن أن عمي كان يمارس أفعالا مريبة في الماضي.. أشياء مرتبطة بتحضير الأرواح.. وسأقوم باستكمال إرثه.

أسرار كثيرة ظهرت لي وانكشفَت فجأة في خلايا دماغي الرمادية.. لأنني أدركت للتو ما الذي أخاف زوجتي حين رأتني قبل أن تصاب بالرعب وتلقى حتفها.. فقد رأت لحظة الاكتمال.. لحظة اكتمال التلبُّس.. فأثناؤها أفتح فمي على مصراعيه وبطريقة مرعبة.. وتظهر عيناي أبيضا اللون من دون البؤبؤ.. لهذا شعرت زوجتي بالرعب.. إنني أعرف كل هذه المعلومات الآن.

أعلم أن هناك أسئلة كثيرة.. لكني سأجيب عليها حتى تتضح

الصورة كاملة.. فلماذا أصابني التلبُّس ولم يصب زوجتي؟!.. لأن عملية الانتقال هذه يجب أن تتم من رجل إلى رجل.. أو من امرأة إلى امرأة.. ما علاقة المرايا بالأمر؟!.. السحر الذي يمارسه عمي يكمن فيها.. ومن خلاله تتم عملية التلبُّس كاملة.. لماذا كل هذه المرايا؟!.. لماذا لا يتم الأمر بمرآة واحدة؟!.. إنه أحد الأسرار التي لا يمكنني الإفصاح عنها.. لماذا لم يحدث التلبُّس للطبيب الذي يزور عمي ليطمئن على صحته؟!.. لأن عمي رتب عملية التلبُّس هذه كي تحدث لشخص من نفس نسل عائلتنا.. إنه إرث حمله عمي ونقله إليّ تلقائيا بعد أن قتلته بنفسي.

المهم إنني الآن أحمل وجهي وأحمل ذكرياتي الخاصة.. لكنني أحمل كل المعلومات التي يمتلكها عمي وامتلكها من هو قبله.. لهذا أشعر بكم هائل من المعرفة.. ماذا عن الخادمة؟!.. إنها لا تعرف شيئا.. ستظن أن هذا حادث آخر.. ماذا عن الشرطة؟!.. وكيف سأتعامل معهم؟!.. ألن تثار شكوكهم بعد وفاة زوجتي بنفس طريقة وفاة عمي؟!.. بكل تأكيد.. لكني سأخبرهم بالحقيقة.. وسيصدقونني.. لأنني لا أملك أي دافع لقتلها.. فهي لا تملك شيئا أصلا.. أنا الذي ورثت عمي.. أنا الذي حصلت على كل شيء.

حفل زفاف

نسمع دوما أن مشاعر الأب لا حدود لها.. وأننا مهما وصفناها.. سنكون قد تحدثنا عن قمة الجبل فقط.. خاصة حين يتعلق الأمر بحفل زفاف ابنته.. فلا يوجد أب في العالم يستطيع دفن مشاعره المؤلمة وقتها وهو يتذكر سنوات العمر التي مرت سريعا.. وقد كبرت الطفلة التي كان يحملها ويلعب معها ويأخذها إلى المدرسة كل يوم ممسكا بيدها.. ولا تنام ليلا إلا حين يروي لها قصصا يغالبها النعاس قبل أن ينهيها.. فيقبل جبينها بحنان ويحتضنها وهو يشعر أنه أنجب ملاكا في هيئة بشرية.. لكن كل هذه الذكريات ولت إلى غير رجعة.. بعد أن كبرت الطفلة.. وأصبح الآن ارتباطها وطيدا بزوجها لا والدها.

أفكر بهذا أثناء حفل زفافي حيث كنت أبدو ليلتها في أبهى صوري مبتسما للحضور.. فأنظر إلى والد عروسي الذي امتلأت عيناه بالدموع.. من دون أن أشعر بأي تعاطف معه لعِلْمي أنه يكرهني وقد وقف عائقا أمام زواجنا.. ولا أنسى أيضا كم المعاناة التي عشتها للحصول على موافقته بسبب الفروقات الاجتماعية بيننا.. قبل أن يرضخ أخيرا لإلحاحي المستمر والضغط الشديد الذي مارسته ضده.. وهذا على الأرجح سبب نظرات التخاذل الواضحة في عينيه.. كم كنت أتمنى لو أن والدتها على قيد الحياة.. ربما الأمور كانت ستصبح أكثر سلاسة.

حان موعد نهاية حفل زفافنا المبسّط.. لأنهض ممسكا بيد عروسي بفخر وأنا أنظر إلى الحضور بابتسامة عريضة.. في حين ينظر إليّ والدها بالمقابل والدموع تنهمر من عينيه بلا توقف.. لينهض من مكانه أيضا ويسير ببطء مقتربا منا.. إلى أن بات على مسافة قريبة جدا.. ليتحول بكاؤه الصامت إلى انهيار.. فوقع على الأرض أمام نظرات الجميع وهو في أسوأ حال.. ثم قال وهو يجهش بالبكاء:

- لقد نفذت كل طلباتك.. لكنك لم تفِ بوعدك.. لقد أتيت لنا بِيَد ابنتي فقط.. متى ستخبرنا أين أخفيت بقية جسدها؟؟!!.

قلت له بصرامة غير مبال لدموعه واتهامه لي بالقتل:

- لقد غيرت رأيي واكتفيت بأن آتيك بِيَدها فحسب.. فهي الجزء الأهم الذي يحتاجه أي زوج كي يضع في الإصبع خاتم الزواج.. ثم يسير في الممر بين المعازيم ممسكا باليَد ومعلنا عن نهاية الحفل.. هذا ما يحدث في حفلات الزفاف وهذا ما أفعله الآن.

حسنا.. يبدو أنه ولسبب ما لم يحتمل كلماتي.. ولم يحتمل جلوس هؤلاء المعازيم صامتين يترقبونني بنظراتهم.. مما جعله يصرخ بهم:

- لماذا تسمحون له بفعل كل هذا؟!.. لماذا لا تنهون الأمر وتقبضون عليه.. فببعض الصفعات والركلات.. سيعترف هذا اللعين بالمكان الذي أخفى به بقية جثة ابنتي.

أحدهم يحاول تهدئته وهو يقول بهمس وصل إلى مسامعي:

- لأنه مختل عقليا.. يجب أن نسايره قليلا إلى أن يعترف.. لا توجد أي حلول أخرى.. لهذا ارتدينا ثيابا مدنية وأقمنا ما يشبه حفل زفاف مصغّر.. أرجوك التزم بكل ما اتفقنا عليه.

لم أعرف ذلك الرجل ولم أفهم عن أي مختل عقلي يتحدث.. وربما لم أجد الوقت لأفهم.. لأن والد زوجتي نظر إليّ بحقد.. وأخرج سلسلة مفاتيحه من جيبه.. ثم اتجه ناحيتي بسرعة.. وطعنني بأحد المفاتيح في بطني مرة ومرتين وقد حرص حرصا شديدا كما يبدو على تحريك المفتاح في أحشائي كي يصيبني بأكبر قدر من الضرر.. كل هذا وسط نظراتي المذهولة.. ليقول صارخا:

- هذه فرصتي الوحيدة للانتقام.. دم ابنتي لن يذهب هدرا.

إنه لم يقتنع حتى الآن بزواجي من ابنته كما هو واضح.. رغم أنني أكدت له وللجميع قبلها أن ابنته تحبني منذ لقائنا الأول.. فقد عثرت على حسابها صدفة في أحد مواقع التواصل الاجتماعي.. ووقعت في غرامها منذ أن رأيت صورتها.. وبت أرسل لها رسائل الإعجاب والحب باستمرار.. لكنها لم ترد عليّ أبدا.. لأدرك أن أحدهم -على الأرجح- يمنعها من ذلك.

تتبعت الفتاة والأماكن التي ترتادها.. إلى أن عرفت عنوانها.. فجئت إلى بيتها للتحدث مع والدها وإبلاغه برغبتي في الزواج منها مؤكدا له أنها تعرفني جيدا وأننا نحب بعضنا.. لكن.. عندما جئته في زيارتي الثانية بعد يوم أو يومين لأعرف رده.. أخبرني أنني مجنون وأن ابنتي لا تعرفه أصلا.. وحذّرني من المجيء مرة أخرى.

وبعد إلحاحي الشديد وترددي على بيته أكثر من مرة.. أبلغني أنه سأل أحد الأطباء النفسيين عني.. وعلم أنني أعاني من حالة مرضية -نسيت اسمها- أتوهم خلالها أن فتاة ما واقعة في حبي(20).. ولم يكتفِ بذلك.. بل جاء بابنته إليّ لتخبرني بنفسها أنها لا تعرفني ولا تحبني!!.. تخيلوا هذا.. فأدركت أن ابنته أشبه بأن تكون رهينة عنده.. لكن بالطبع لن يصدقني رجال الشرطة لو أخبرتهم بذلك.

هذا ما جعلني أتصرف من تلقاء نفسي وأقوم بإنقاذ ابنته منه.. عندما خطفتها في أحد الأيام وأتيت بها إلى شقتي.. لكنها ماتت للأسف أثناء محاولتها للهروب.. فقد كنت أحاول إقناعها أنها بمأمن معي.. لكن محاولاتي لم تأتِ بنتيجة.. خاصة حين أخذَت سكين المطبخ ولوحت به أمامي مهددة بقتلي لو استمررت بحبسها.. مؤكدة أنها لا تحبني وترغب بالرحيل.. كما ترون.. لقد كان تأثير والدها عليها رهيبا لا يصدق.

لقد حاولت أخذ السكين منها.. لكني فشلت في ذلك

وطعنتها بالخطأ للأسف لأراها تلفظ أنفاسها الأخيرة وسط دموعي وآلامي وأنا أحاول كل جهدي لإنقاذها.. حينها أقسمت أن أكون مخلصا لحبّها رغم موتها.. وألا أفرط بجسدها أبدا.. مما جعلني أذهب إلى الشرطة وأخبرهم بكل شيء.. وبعد أحداث كثيرة رفضْت خلالها رفضا قاطعا إخبارهم بمكان جثة حبيبتي.. أخذوني إلى المستشفى لفحص حالتي العقلية كما يدّعون.

ثم عادوا ليخبروني أن حبيبتي ستكون لي إلى الأبد كما أتمنى.. وأن بإمكاني الإبقاء على جسدها والزواج منها بعد أن حصلوا على موافقة والدها.. على أن يقام حفل زفافنا في القريب العاجل في قاعة صغيرة قاموا هم بكل الترتيبات لتجهيزها.. لكني لم أجد أي هدف من أن آتي بحبيبتي.. فكل ما كنت أحتاجه هو يدها فقط.. وقد ذكرت الأسباب لوالدها الذي لم يعجبه ردي وتراجع عن وعوده وطعنني مرتين في بطني كما تبين في القصة.. مدّعيا أنه سيقتلني كما قتلت ابنته.. ولحسن الحظ لم يتمكن من طعني للمرة الثالثة بعد أن انقض عليه المعازيم وكبلوا حركته.

أما أنا.. فقد قاموا بإنقاذي من إصاباتي.. وها أنا الآن أكتب مذكراتي في المستشفى.. آملا ألا يعثروا على جسد زوجتي في شقتي التي لم أفصح لهم عن مكانها بعد.. غير مكترث بما يقوله الطبيب المسؤول عن حالتي.. وحديثه الأخير مع أحدهم عبر الهاتف.. حيث تمكّنت من سماع جزءا منه وهو يؤكد للطرف الآخر الذي لا أعرف عن هويته شيئا:

((إنه هنا بقوة القانون.. ولا أظنه سيخرج في أي وقت قريب.. المهم الآن أن جثمان الضحية سيرقد بسلام بعد أن قام والدها بإجراءات الدفن منذ أيام قليلة)).

لقاء عائلي

- حبيبتي.. مسألة إقناع عائلتي صعبة.. لكني لن أتوقف أبدا.. فإذا لم أحصل على موافقتهم.. سنتزوج رغما عنهم.

قالها (فيصل) بحزم وهو يمسك يدي وينظر عبر زجاج سيارته الفارهة.. فرحت أطبطب على يده وأنا أدعوه للتريث وأقول بحنان وأسف:

- الفوارق الاجتماعية بيننا هائلة يا (فيصل).. فلا أحد يتقبل فكرة الارتباط بفتاة مجهولة النسب.. خاصة العوائل الثرية المعروفة.. حتى لو قاتلت من أجلي وجعلتهم يستسلمون للأمر الواقع.. ستكون تلك الحقيقة أمام أعينهم في كل لحظة.. وسأكون في نظرهم مجرد فتاة رخيصة طمعت بثروة ولدهم.

رد بعصبية:

- لا تهمني ثروة عائلتي ولا نظرتهم إليك.. أريدك أنت.. ولن أندم على هذا القرار أبدا.. حتى لو حرمني والدي من ثروته.

تدارك نفسه ليعود إلى هدوئه ويقول مغمغما:

- لم أقل عبارتي الأخيرة هذه لأثير إعجابك.

قلت مبتسمة:

- لهذا أثرت إعجابي.

زفرْتُ بعدها بيأس وطلبت منه أن يفكر قليلا قبل أن يقدم على أي تصرف.. ليومئ برأسه متفهما ويطلب مني منحه بعض الوقت كي يجد الطريقة الملائمة لمصارحة والديه.. فنظرت إليه بحُب وودعته بكلمات خافتة قبل أن أنزل من سيارته لأركب سيارتي وأعود إلى شقتي.. على أمل التواصل معه قريبا.

أعتقد أن القصة واضحة بعد هذا الحوار.. إنه موضوعنا الشاغل

في الأيام الماضية.. فقد أحببت (فيصل) الذي ينتمي لأسرة ثرية جدا وصغيرة في نفس الوقت.. فليس له سوى شقيق واحد يصغره بسنتين.. وهي -كحال أي أسرة- لا يمكن أن تقبل الارتباط بفتاة مجهولة النسب مثلي.. لتتوقف أحلامنا الوردية عند هذه النقطة ونبدأ نتذكر عالم الواقع والعوائق العديدة التي تمنع ارتباطنا.. ليس فقط موافقة والديه.. بل تضحيتي كذلك بقبول سفره المتكرر معظم أوقات السنة لإدارة تجارة أسرته.. فقد بدأ والده أعماله التجارية في إحدى الدول الأوروبية منذ سنوات طويلة.. حتى كبرت شركته ووجد أن فرصة استمرارها هناك أفضل بكثير من الانتقال إلى الوطن.. لذا يتناوب (فيصل) وشقيقه على السفر باستمرار لإدارة العمل.. ورغم ذلك.. لم يتوقف عن التواصل معي يوميا حتى وهو خارج البلاد.. مما جعلني على يقين أنه يحبني ولا يرغب أبدا باللهو كما قد يظن البعض.

مرت بضعة أيام منذ ذلك اللقاء كنت خلالها على تواصل دائم بـ(فيصل).. إلى أن اتصل بي ذات مرة ليبلغني أنه تحدث مع والديه بأمر علاقتنا.. وأنه يرغب بدعوتي لتناول العشاء في بيته ليتعرفا علي.. مما أشعرني بسعادة بالغة ممزوجة بالذهول لسير الأمور بهذه السلاسة.. إلا أن سعادتي هذه سرعان ما تلاشت حين أبلغني أنه لم يتطرق إلى وضعي الاجتماعي بعد.. وأن هذا سيحدث بكل تأكيد لكن بعد أن يلتقيا بي ويأخذا عني انطباعهما الأول.. لأنه على يقين أن لباقتي وشخصيتي الآسرة ستؤثر عليهما.. وسيساعد هذا كثيرا في تقبّلهما لأمر زواجنا عندما يصارحهما بوضعي الاجتماعي.

والواقع أنه لم يجاملني في كلامه.. فأنا فتاة عملية جدا ومتحدثة لبقة.. أمتلك خبرة واسعة في العلاقات الاجتماعية.. ولم أعتمد فقط على شهادتي كحال معظم الناس.. بل تعلمت مهارات كثيرة لأكون إنسانة ناجحة في شتّى المجالات.. حتى

أنني تعلمت مهارات الطبخ فقط لكي لا أستعين بخادمة وأوفر أكبر قدر ممكن من راتبي.

المهم أنني في الليلة الموعودة.. أعددت طبقا من الحلويات الشرقية الراقية لآخذها معي.. وقمت بعدها بارتداء أفضل ثيابي.. ورتبت شعري بطريقة جميلة زادتني جمالا وأناقة.. ثم جلست أنتظر (فيصل) الذي جاء ليأخذني في الموعد المحدد.. وبالطبع انبهر بأناقتي.. لكن.. كان من المستحيل أيضا إخفاء التوتر الذي سيطر عليه.. وعليّ كذلك.. آملين أن تمر الليلة على خير.

وصلنا أخيرا إلى فيلا عائلته التي بدت مبهرة من الخارج.. لندخل معا وهو ممسك بيدي.. ويده الأخرى تمسك بطبق الحلويات الذي أعددته.. متجهين إلى صالة الاستقبال حيث والديه وشقيقه الذين رحبوا بي باحترام وود.. ووالدته تؤكد لي أن (فيصل) يتحدث عني كثيرا.. وأنها لفرصة رائعة أن تلتقي بي أخيرا.. حسنا.. أتساءل إن كان رأيها سيظل كما هو لو علمت أنني مجهولة النسب.. لكني لن أستبق الأحداث.

جلس كل منا باسترخاء لنتبادل عبارات المجاملة.. قبل أن يتمحور الكلام حول حياتي كوني الشخص الغريب الوحيد بينهم.. فبدأت التحدث عن نفسي من دون التطرق لنسبي.. وهم يستمعون باهتمام معجبين بلباقتي كما هو واضح.. إلى أن دعتنا والدته إلى مائدة العشاء بعد أن أعدها الخدم.

جلسنا حول المائدة نستكمل حديثنا ونتطرق إلى مواضيع أخرى مختلفة ونحن نتناول ما لذ وطاب من الأصناف التي صنعها طباخ العائلة كما علمت من والدته.. فأتناول طعامي وأشرب من عصير التفاح الفوار الفاخر وأنا أستمع إليهم وأبدي رأيي في بعض الأمور العامة.. عالمة أن والديه قد يطرحان السؤال المتعلق بعائلتي ونسبي في أي لحظة.. وسيكون الجواب حينها مقتضبا -كما اتفقت مسبقا مع (فيصل)- بأن والديّ متوفيان.. على أن يخبرهما لاحقا بالحقيقة.. لكنهما لم

يطرحا السؤال.. حتى بعد أن انتهينا من العشاء وعدنا للجلوس في غرفة المعيشة.

قمت بعدها بتوزيع الحلوى التي صنعتها على الجميع.. حتى على الخدم.. مما ترك انطباعا رائعا لدى والديه.. لكن.. بعد وقت قصير.. لاحظت أن (فيصل) يتحدث مع والدته همسا.. ثم.. ينهض ليقف أمامي وهو يقول بطريقة عملية يتخللها بعض الأسف:

- عزيزتي.. ستفقدين وعيك بعد لحظات ولن تستعيديه أبدا.

نظرْت إليه مستغربة.. ليقول متعاطفا:

- أنا لا أرى بأسا من إبلاغك بالحقيقة الآن بعد أن وضعنا لك منوّما في عصير التفاح الفوار.. ربما لم تنتبهي أن أحدا لم يشرب منه سواك.. ولو كنت قد رفضته.. لوضعنا لك المنوّم في مشروب آخر.

كنت أظنه يمزح في البداية.. لكن.. نظراته ونظرات والديه وشقيقه أكدت لي أن لا مزاح في الأمر.. ليكمل:

- أنا لم أخبرك أبدا عن تجارتنا الحقيقية.. في الواقع نحن نتاجر بالأعضاء البشرية.. وهي تجارة غير قانونية في معظم أنحاء العالم(21).. لكنها تجارة مربحة جدا.. وأكثر أمنا من تجارة السلاح والمخدرات التي يلجأ إليها بعض الحمقى.. فهناك العديد من المستشفيات التي تشتري منا الأعضاء البشرية بمبالغ طائلة.. كما أننا نقدم الرشاوى لبعض الأطباء كي يعلنوا وفاة مرضاهم لأسباب طبية تقليدية لا تثير الشك.. على أن نسرق أعضاءهم لنقوم ببيعها على من يحتاجها من الأثرياء.. إن سوق الأعضاء البشرية رائج للغاية.. ونحن ندير شبكة ضخمة في هذه التجارة.

اقترب مني وهو يقول بهدوء:

- بالنسبة لنا فأنتِ بمثابة الكنز الذي يسير على قدمين.. إنك

فتاة مجهولة النسب لا أحد سيسأل عنك لو اختفيت.. وبإمكاننا أخذك إلى أحد المستشفيات كي يكتب الطبيب تقريرا رسميا عن وفاتك لن يثير شكوك أحد.. وسيحصل على مكافأته نظير ذلك.. لنأخذ بعدها كل أعضائك.

بدأت أغمض عيني ببطء شديد.. ليقول متعاطفا:

- بدأ مفعول المنوم.. لن تستيقظي بعد اليوم.. المعذرة.. لكن تجارتنا أهم بكثير من علاقتنا يا عزيزتي.

لكن.. انهار والده في مكانه فجأة وفقد وعيه.. فتجاهلوني جميعا واتجهوا ناحيته متسائلين عما جرى له.. لأرى بعدها الخادمة تأتي راكضة لتبلغهم أن زميلتها فقدت وعيها لسبب ما.. عندها فقط.. فتحت عيني بحزم وأنا أردد مبتسمة:

- لم أشرب شيئا من عصير التفاح الفوار كما تظن.. كنت فقط أمثّل أنني أرتشف منه.. وأسكب بعضه في كوب الماء لأخدعكم.. لقد تدربت على ذلك كثيرا قبل المجيء إلى هنا.. كنت أراقبكم وأحرص ألا أشرب أو آكل شيئا وحدي.. لكن بالمقابل.. الجميع أكل من طبق الحلويات الذي أعددته.. الجميع سواي.

كانت المفاجأة أقوى من قدرتهم على الرد.. خاصة بعد أن سقطت الخادمة أيضا أمامهم وفقدت وعيها.. لأقول بابتسامتي الصفراء الباردة:

- لقد بدأت العمل في تجارة الأعضاء البشرية منذ أكثر من سنة.. حين تعرفت -عبر وسائل التواصل الاجتماعي- على رجل أعمال أوروبي.. فتوطدت علاقتنا بعد شهور.. وعلمت منه أنه في الواقع يتاجر في الأعضاء البشرية ويتعامل مع أسرة معروفة هنا.. بالطبع لم يخبرني في البداية عن هويتكم حفاظا على السرية.. لكن ومع مرور الوقت.. أُعجب بلباقتي وذكائي.. خاصة حين طرحت عليه فكرة أثارت اهتمامه.. بأنني سأكون أسهل تحركا منكم.. فأنا مجهولة النسب كما لا شك

وأن (فيصل) قد أخبركم.. ولن يكون من العسير على فتاة جميلة مثلي أن تستدرج من تريد من الرجال وبتكاليف أقل من التي تطلبونها.. دعكم من أنني وعدت تاجر الأعضاء البشرية هذا بصفقة لا يمكن تعويضها.. أن آتيه بأسرتكم كاملة مع الخادمتين اللتين تتعاونان معكم كما أخبرني هو بنفسه.. لقد غدر بكما بعد أن منحته الحب وما يحتاجه في تجارته.. إنني الآن الوكيل الجديد لتجارة الأعضاء البشرية في بلدنا.

كانوا يتساقطون -أثناء كلامي هذا- واحدا تلو الآخر بفعل المنوّم القوي الذي وضعته لهم في الحلوى الشرقية.. فلَم يجد أي منهم الوقت لينطق بكلمة.. سوى شقيق (فيصل) الذي أطلق سبة قذرة بحقي قبل أن يفقد وعيه.. و(فيصل) نفسه الذي قال مصدوما:

- ظننتك فتاة لطيفة.

قلت بخفوت وأنا أراه يفقد وعيه أمامي:

- لا تظن.

مرت لحظات من الصمت وأنا أنظر إليهم يتساقطون أرضا في أوضاع متعددة وبمشهد أثار توتري.. لكن لا مفر من استكمال العمل.. فاتصلت بذات الجراح الذي تتعامل معه الأسرة والذي كنت قد قمت بالتنسيق معه مسبقا بمساعدة التاجر الأوروبي.. حيث جاء إلى البيت وقمت معه بإطفاء الأنوار وقفل الأبواب لإعطاء التصور أن جميع أفراد الأسرة في الخارج.. وقد قضى الجراح بضعة أيام يعمل بصمت وصبر وسرية تامة لاستئصال أعضائهم البشرية.. ومن ثم الاحتفاظ بكل قطعة في جرة مستقلة تحوي محلولا حافظا.. على أن يتم شحنها من دون تفتيش في المطار بواسطة شريك لنا يعمل في السلك الدبلوماسي.. أعلم أن في تصرفنا هذا نوعا من المغامرة.. كأن نثير شكوك أحد الأقارب مثلا لو اتصل هاتفيا بـ(فيصل) أو أحد أفراد أسرته ولم يجد الرد.. لكن شيئا من هذا

لم يحدث لحسن الحظ.

كان لا بد من خطوة أخيرة حال انتهاء الطبيب من عمله.. أن نحرق الفيلا بكل من فيها وبطريقة توحي أن ما حدث نتاج مَس كهربائي.. حيث أعلنت وسائل الإعلام عن ذلك بالفعل فيما بعد.. فهذه الوسيلة الوحيدة التي لن تثير شكوك رجال الشرطة.. وإلا سيخضعون الجثث للطب الشرعي مما قد يتسبب بمشاكل قد تكشف أمرنا.

أعترف أن قرار دخولي عالم تجارة الأعضاء البشرية ليس سهلا.. فهي تجارة قذرة وأكثر سوءا من المخدرات أو الأسلحة.. لكني تعلمت أن الواقع ليس فقط أبيض أو أسود كما نظن.. فهناك اللون الرمادي.. إنه اللون الطاغي وإن كنا لا نعترف بهذا.. فجميعنا رماديون.. نعيش حياة متلونة حسب الظروف وحسب مصالحنا.. المهم الآن -وبعيدا عن الفلسفة- يوجد وكيل جديد لتجارة الأعضاء في بلدي.. بعد أن انتصرت في المنافسة على أسرة كاملة ظنت أنها تتلاعب بي.. لكني في الواقع أنا من كنت أتلاعب بهم في ذلك اللقاء.. اللقاء العائلي.

إصدارات المؤلف:

1) وراء الباب المغلق (2000)

2) خلف أسوار العلم (2002)

3) الأبعاد المجهولة (2004)

4) الأبعاد المجهولة 2 (2006)

5) في الجانب المظلم (2008)

6) حكايات من العالم الآخر (2008)

7) 17 (2008)

8) زيارات ليلية (2009)

9) رسائل الخوف (2010)

10) بعد منتصف الليل (2012)

11) منطقة الغموض (2012)

12) حالات نادرة (2012)

13) حالات نادرة 2 (2013)

14) حالات نادرة 3 (2014)

15) الأبعاد المجهولة 3 (2014)

16) متحف الأرواح (2015)

17) حالات نادرة 4 (2016)

18) قصص.. لا يسمحون لي بنشرها (2017)

19) مخطوطات مدفونة (2018)

20) ملاذ (2018)

21) المُعقَّد (2019)

22) حالات نادرة 5 (2020)

23) جرعة زائدة (2020)

24) حالات نادرة 6 (2021)

25) نهايات غير متوقعة (2022)

26) حالات نادرة 7 (2023)

27) 18 (2024)

28) ملاذ 2 (2024)

للتواصل مع المؤلف

Email: **kuwaiti27@hotmail.com**

X: **@Abdul_Alrifaee**

Instagram: **abdul_alrifaee**

Snapchat: **alrifaee**

TikTok: **@abdul_alrifaee**

Threads: **abdul_alrifaee**

Telegram: **@Abdul_Alrifaee73**

---

(1) (العلم الزائف) (Pseudoscience) هو الذي لا يعتمد على المنهج العلمي الصحيح في البحث.. بل على الانحياز للتصريحات أو الاعتقادات أو الممارسات.. تماما كمن يؤكد وجود مخلوقات فضائية تعيش على كواكب أخرى.. فقط لأنه يتمنى ذلك.. بدلا من المحاولات الجادة لدراسة الأمر بدون تحيزات مسبقة.. وقد وضع العلماء الكثير من الاعتقادات تحت بند (العلم الزائف).. مثل فكرة الأشباح والتنجيم والطب البديل وعلم الطاقة.. إلخ.. وقد تم تكوين المصطلح (Pseudoscience) من اللفظة اليونانية (Pseudo) أي (خاطئ).. مع الكلمة الانكليزية (Science) المشتقة بدورها أيضا من اللفظة اللاتينية (Scientia) والتي تعني (المعرفة) أو (العلم).

(2) يجب أن نذكر هنا أن الثعبان والأفعى ليسا شيئا واحدا كما قد يظن البعض.. فالأفعى سامة دوما وتمتلك رأسا صغيرا مدبب الزوايا.. بينما الثعبان يملك رأسا مثلث الشكل وليس بالضرورة أن يكون ساما.. كما تحمل الأفعى أنيابا متحركة تنثني للخلف عند إغلاق الفم.. بينما الثعبان أنيابه ثابتة.. علما بأن سم الأفعى يدمر (الجهاز الدوري) عند الكائنات الحية.. وهو النظام الذي يقوم بنقل الدم المُحمَّل بالأكسجين من القلب والرئتين إلى كافة أنحاء الجسم من خلال الشرايين والأوعية الدموية.. بينما سم الثعبان يهاجم الجهاز العصبي والعضلات.

(3) حقيقة.

(4) حقيقة

(5) الاختناق هو توقف التنفس من خلال إغلاق الممرات الهوائية للرقبة نتيجة الضغط الخارجي.. فينتج عن ذلك حرمان الدماغ من الأوكسجين.. مما يتسبب بفقدان الوعي.. ومن ثم موت خلايا المخ بعدها ببضعة دقائق.. ليتوقف القلب مباشرة مما يؤدي إلى الوفاة.. هكذا بالترتيب.. وفي حالة خنق الضحية بواسطة ضغط اليدين أو الذراع.. ستظهر على الرقبة علامات على هيئة كدمات دائرية الشكل.. أما لو تم الخنق بواسطة الحبل أو السلك الكهربائي أو الحزام.. إلخ.. ففي هذه الحالة سنرى حول العُنق حزًا دائريا كاملا غالبا ما يأخذ شكل الأداة المستخدمة.

(6) (متلازمة اليد الغريبة) (Alien Hand Syndrome).. ويطلق عليها أيضا (متلازمة دكتور سترينجلوف) (Dr. Strangelove Syndrome) نسبة لشخصية في فيلم حمل هذا الاسم عام 1964.. وفي الفيلم يفقد الدكتور (سترينجلوف) قدرته على التحكم بذراعه اليمنى.. مما يتسبب له بمشاكل أثناء إلقاء التحية النازية الشهيرة.. فعند الإصابة بـ(متلازمة اليد الغريبة).. يشعر المصاب أن يده ليست جزءا من جسده.. ويعجز عن السيطرة عليها.. لتتحرك من تلقاء نفسها كما لو كان لها عقلها الخاص.. وتقوم بمهام لا يريد صاحبها القيام بها.. بل وقد تؤذي صاحبها نفسه.. فيحاول السيطرة على يده المصابة بشتّى الطرق.. حتى لو اضطر إلى إمساكها بين رجليه أو الجلوس عليها.. وقد تم تسجيل هذه الحالة لأول مرة عام 1908 أو 1909 عن طريق طبيب الأعصاب الألماني (كورت غولدستاين) (Kurt Goldstein).. أما أسباب (متلازمة اليد الغريبة) فقد تعود إلى الإصابة بوَرَم في الدماغ.. أو نتيجة مضاعفات إجراء جراحة في الأعصاب.. ولا يوجد علاج لها حتى الآن.. ولكن قد يتعافى منها المصاب مع مرور الوقت.. كما يمكن أحيانا تخفيف حدة الأعراض بواسطة بعض المهدئات.. أو الجلسات النفسية.

(7) يجب أن نذكر هنا أن جثة الإنسان تتحلل بعد موته من خلال 4 مراحل أساسية.. أولها (التحلل الذاتي) (Autolysis) وتبدأ هذه المرحلة فورا بعد الموت.. إذ يتوقف الجهاز التنفسي والقلب عن العمل.. وتصبح الجثة غير قادرة على إخراج الفضلات.. فتتغير درجة حموضتها.. وتتمزق الخلايا لتخرج منها الإنزيمات -وهي المحفزات البيولوجية التي تسرّع التفاعلات الكيميائية في الجسم- ثم تبدأ الجثة بالتصلب مع ارتخاء البشرة.. وبعد 24-72 ساعة من الموت.. تبدأ الأعضاء الداخلية بالتحلل أيضا.. أما المرحلة الثانية فهي الانتفاخ (Bloat).. وتبدأ بعد 3-5 أيام من الموت.. فتنتفخ الجثة نتيجة لعمل الإنزيمات التي تؤدي إلى إنتاج الغازات.. ثم تبدأ بالتحلل نتيجة عمل البكتيريا والكائنات الحية الدقيقة.. ليؤدي كل هذا إلى رائحة تعفن سيئة جدا (Puterfaction).. وبعد 8-10 أيام.. يتحول لون الجثة من الأحمر إلى البنفسجي المائل للاحمرار نتيجة تحلل الدم وتجمع الغازات.. وتأتي بعدها بحوالي شهر مرحلة (الاضمحلال النشط) (Active Decay).. إذ

تبدأ الأعضاء الداخلية بالتحول إلى الحالة السائلة وتخرج من فتحات الجثة.. ليبقى الشعر والعظام والغضاريف.. وتفقد الجثة معظم وزنها في هذه المرحلة.. وبعد عدة أسابيع تبدأ الأسنان والأظافر بالتساقط.. لتأتي مرحلة (الهيكل العظمي) (Skeletonization) وهي مرحلة قد تستغرق شهرا واحدا أو تمتد إلى عدة سنوات.. وذلك بحسب البيئة والظروف الجوية المحيطة التي تسرّع أو تبطئ من عمل البكتيريا.. فالحرارة المنخفضة مثلا تبطئ من نشاط البكتيريا وقد تلغيه نهائيا.. أما الحرارة المرتفعة فتسرّع من وتيرة تكاثر البكتيريا ونشاطها.. وبالتالي تزيد من سرعة تحلّل الجثة وتحولها إلى هيكل عظمي.

(8) حقيقة بالطبع.

(9) يحدث الارتجاج نتاج تلقي ضربة عنيفة في الرأس بحيث تؤثر على وظائف المخ.. وعادة ما تكون التأثيرات مؤقتة.. فتشمل الصداع وصعوبة التركيز واختلال الذاكرة والنسيان.. والشعور بالغثيان والنعاس والحساسية للضوء.. وقد تشمل كذلك تداخل الكلام وتأخر استيعاب الأسئلة والرد عليها.. ومن الممكن أن تستمر الأعراض لعدة أيام أو أسابيع.. أو حتى لفترة أطول.. وفي معظم الأحيان يشفى المريض من تلقاء نفسه.

(10) هذا ما تقوله بعض الدراسات بالفعل.

(11) (متلازمة المُنحَبِس) (Locked-in Syndrome): مصطلح يطلق على حالة مرضية تجعل المريض أو المصاب في حالة استيقاظ ووعي.. لكنه غير قادر على التواصل مع الآخرين بسبب إصابة جسده بشلل كامل لكل عضلاته الإرادية.. عدا عضلات العينين.. أما حالة (متلازمة المُنحَبِس التامة) (Total locked-in Syndrome) -موضوع قصتنا- فتتضمن شلل العينين أيضا.. علما بأن هناك أسبابا كثيرة لحدوث (متلازمة المُنحَبِس) هذه.. منها الجلطة الدموية في الدماغ.. أو وجود ورم في الدماغ.. أو استخدام جرعات كبيرة من بعض الأدوية.. أو إصابات الدماغ الناتجة عن الحوادث.. وقد استخدم الطبيبان الأمريكيان (فرِد بلوم) (Fred Plum) و(جيروم بوسنر) (Jerome Posner) هذا المصطلح أول مرّة عام 1966 ميلادية.. ويجب أن نذكر هنا أن هذه ليست الحالات الوحيدة التي يصاب فيها الجسد بشلل كامل.. فهناك أيضا المتلازمة المرضية (غيان باريه) (Guillain-Barré Syndrome) -أو اختصارا (GBS)- وهي حالة أخرى تجعل الجهاز المناعي للإنسان يهاجم الأعصاب ويصيبها بالشلل التام لأسباب غير مؤكدة علميا حتى الآن.. وسميت المتلازمة بهذا الاسم نسبة لأطباء الأعصاب الفرنسيين (جورج غيان) و(جان باريه) اللذين وصفا الحالة عام 1916.. كما توجد حالات أخرى قد يتعرض خلالها المريض للشلل التام فيظنه الناس ميتا.. وما تم ذكره بعضا منها فحسب.

(12) (السحر الأسود) أو (الشعوذة) هو فرع من فروع السحر الذي يستند على استحضار ما يسمى بالقوى الشريرة لإلحاق الأذى بالآخرين.. أو حتى لتحقيق مكاسب شخصية.. علما بأن هناك جدلا واسعا بين أهل الأديان أنفسهم حول تقسيم السحر من الأساس إلى أسود وأبيض.. إذ يرى البعض أن السحر الأبيض يهدف إلى الخير.. كإزالة العقم عن المرأة أو إبعاد المرض عن المريض.. لكن الغالبية العظمى من المتدينين يرون أن كل سحر هو أسود وسيئ ولا يجوز الخوض فيه أساسا.. وهو ما تقره الأديان السماوية الثلاثة.. وحتى البوذية والهندوسية.

(13) الـ(فودو) (Voodoo) هو نوع من أنواع السحر الأسود.. والمعتقد السائد أن من يمارس الـ(فودو) يمكنه إلحاق الأذى بدمى تمثل شخصا ما.. من خلال غرس الدبابيس بها أو حتى حرقها أو تحطيمها.. فيتعرض الشخص للأذى فعليا.. تماما كما حدث في قصتنا هذه.. ويعتقد المؤرخون أن الـ(فودو) وُجد في قارة أفريقيا منذ بداية التاريخ الإنساني.. وانتشر بعدها إلى مناطق أخرى من العالم مع تجارة العبيد الذين نقلوا ثقافتهم معهم.. في حين يظن آخرون أنه ظهر إبان الاحتلال الأوروبي لأفريقيا.. إذ قام الأفارقة بتعديل وتطوير شعائرهم الدينية علها تنقذهم من المحتل الأوروبي.. فخرجوا بسحر الـ(فودو).

(14) (اضطراب الشخصية الحِدّية) (Border Personality Disorder) هو مرض عقلي يؤثر بشدة على قدرة الشخص على تنظيم مشاعره.. مما يؤدي إلى عدم اليقين بالطريقة التي يرى فيها نفسه.. فيندفع بتصرفاته من دون التفكير بالعواقب.. ومن الممكن جدا أن تتغير مشاعره تجاه الآخرين بسرعة من التقارب الشديد إلى الكراهية المطلقة.. لتؤدي هذه المشاعر المتغيرة إلى علاقات غير مستقرة وألم عاطفي بطبيعة الحال.. ويميل الأشخاص المصابون بـ(اضطراب الشخصية الحِدّية) إلى النظر للأمور بطريقة متطرفة جدا.. فإما أن تكون كل الأشياء رائعة.. أو بمنتهى السوء.. كما يمكن أن تتغير اهتماماتهم وقيمهم الأخلاقية بسرعة أيضا.. ليتصرفوا بتهوّر ملحوظ.. مثل الإنفاق بلا حساب.. أو قيادة السيارة بتهور.. أو الشراهة في الأكل.. أو إيذاء النفس بين حين وآخر.. وأحيانا إيذاء الآخرين أيضا.. والتفكير المستمر بالانتحار.. وكل ما ذُكر عبارة عن نوبات تصيب المريض وتستمر من ساعات قليلة إلى عدة أيام.. علما بأنه ليس بالضرورة أن يعاني كل شخص مصاب بـ(اضطراب الشخصية الحِدّية) من جميع هذه الأعراض دفعة واحدة.. فالأمر بأكمله يعتمد على شدة المرض وتعامل المريض معه.

(15) (الاستبصار) (Clairvoyance) هو قدرة الحصول على معلومات عن أحداث ما بواسطة العقل فقط ومن دون استخدام الحواس الـ 5 الأخرى.. ويرى بعض الباحثين أن هذه مقدرة بشرية حقيقية.. لكنها قد تحتاج

إلى عامل ما زال مجهولا لتحفيزها وانطلاقها.. إلا أن كلامهم هذا مجرد فرضية لا يوجد ما يثبت صحتها.. ويُقسَّم الاستبصار إلى المعرفة المسبقة (Precognition) أي التنبؤ بالأحداث المستقبلية.. والمقدرة على رؤية الأحداث القديمة (Retrocognition).. والرؤية عن بعد (Remote Viewing) أي مشاهدة أحداث حالية تجري خارج نطاق معرفة الإنسان.. علما بأن لفظة (Clairvoyance) مشتقة من اللفظة الفرنسية (Clair) وتعني (واضح).. و(Voyance) وتعني (الرؤيا).

(16) أغرب وأسوأ أنواع الإدمان.. وموجود بكثرة في منطقة (بيشاور) في (باكستان) حيث يتم حرق العقرب على نار الحطب لاستنشاق الدخان المتصاعد منه.. علما بأن تأثير (تدخين العقارب) يفوق (الهيروين).. إذ يستمر من 10 ساعات إلى حوالي 3 أيام.. ويؤدي لفقدان الذاكرة على المدى القصير مع حالة من الأوهام.

(17) (ولع الاختناق) (Erotic Asphyxiation) عبارة عن إيقاف تزويد الدماغ بالأكسجين بصورة متعمدة للحصول على مشاعر شبيهة باللذة الجنسية.. فالفقدان المفاجئ للأكسجين يعني -بالمقابل- تراكُم غاز ثاني أكسيد الكربون في الدماغ.. مما يتسبب بالهلوسة المختلطة بالنشوة.. وعادة يتم استخدام أساليب مختلفة لتحقيق المستوى اللازم من نضوب الأكسجين في الدماغ.. مثل الخنق بارتداء الرأس كيسا من البلاستيك.. أو الضغط على الصدر.. أو بأي أساليب أخرى تحقق النشوة الجنسية المطلوبة.. وممارسة هذا الأمر خطيرة للغاية حتى لو تمت بحرص وعناية.. إذ تصعب كثيرا عملية السيطرة الكاملة على عملية الاختناق هذه والوصول إلى اللذة الجنسية من دون أن يتعرض الممارِس لخطر الوفاة.. ويعتبر (الولع بالاختناق) نوع من أنواع الشذوذ الجنسي كما هو مذكور في (الدليل التشخيصي والإحصائي للاضطرابات النفسية) أو (DSM) اختصارا لـ (The Diagnostic & Statistical Manual) والصادر عن (الاتحاد الأمريكي للأطباء النفسيين).

(18) تعد فكرة الدفن حيا من أشهر أنواع الـ(فوبيا) بالمناسبة.. ويطلق عليها اسم (تافوفوبيا) (Taphophobia).. وهي مشتقة من اللفظة اليونانية (تافوس) (Taphos) وتعني (الضريح) أو (القبر).. و(فوبوس) (Phobos) وتعني (خوف).

(19) التلبُّس (Possession) هو عبارة عن فقدان شخص لجزء من ذكرياته ومهاراته الحياتية.. واكتسابه لمجموعة جديدة من الذكريات والمهارات عن طريق روح أخرى تتلبَّسه وتفرض طباع صاحبها عليه.. هذا ما يؤكده المتعمقون في الروحانيات.. لكنه يبقى كلاما محل جدل لم يتمكن أحد من إثباته أو نفيه حتى الآن.. رغم الكثير من القصص الحقيقية التي ذكرتها المراجع العلمية والتي تعتبر فكرة التلبُّس تفسيرا مناسبا لها.. ويرى

البعض أن التلبُّس مجرد مسمى آخر لـ(تناسخ الأرواح) (Reincarnation).. فالفارق بينهما يكاد يكون معدوما.

(20) يتحدث هنا عن (هوس العشق) (Erotomania) الذي يتمثل بأوهام تتملك المريض فيتصور أن هناك شخصا غريبا عنه واقعا في حبه.. وأن كل تحركات الشخص الآخر هذا بمثابة إشارات إعجاب متبادل منه.. ويقوم المريض بتفسيرها بما يتناسب مع أوهامه.. والواقع أن (هوس العشق) ليس مرضا بحد ذاته.. بل ينتج عن عدة اضطرابات نفسية أخرى مثل الفصام (اسكيزوفرانيا) (Schizophrenia).. أو الذهان (Psychosis).. أو (اضطراب ثنائي القطب) (Bipolar Disorder).

(21) من الممكن التبرع بالأعضاء البشرية بطريقة قانونية عن طريق موافقة المتبرع في حال كان على قيد الحياة أو بموافقة أقرب أقربائه بعد الوفاة.. علما بأن التبرع بالأعضاء لا يكون دوما للمريض المحتاج.. فأحيانا يكون للأبحاث العلمية.. والأعضاء البشرية القابلة للتبرع كثيرة.. منها الكلى والقلب والكبد والبنكرياس والأمعاء والرئتان والعظام ونخاع العظام والجلد وقرنية العين.. ويمكن للأحياء أيضا التبرع بأجزاء من أجسادهم كما نعلم جميعا.. مثل الكلى أو جزء من الكبد أو جزء من البنكرياس أو جزء من الرئتين أو جزء من الأمعاء.. علما بأن عدد الأشخاص الذين ينتظرون التبرع بالأعضاء البشرية كبير جدا.. وأكبر بكثير من عدد المتبرعين.. ومن الممكن جدا حفظ معظم الأعضاء البشرية وتخزينها في بنوك مخصصة لذلك لفترة تصل إلى 5 سنوات.. ونلاحظ هنا أن حديثنا عن التبرع بالأعضاء البشرية وليس المتاجرة بها.. فالمتاجرة بها غير قانونية في معظم دول العالم.. وهذا ما يجعلها تجارة مربحة جدا.. ففي (الصين) وحدها يبلغ عائدها أكثر من 20 مليار دولار سنويا.